تثوير الملكوت

كُتب سنة ١٣٣٠-١٤٣١هـ. وتم تقديمه كرسالة في مادّة التفسير بناء على تكليف الأستاذ والذي رفض قبول الرسالة بحجّة أنه "ليس فيها مراجع" أي أنها كلّها من كلامي. وإن كان الأستاذ قد أعجبه الكتاب على ما يبدو لأنه أخذ نسختي التي أعطيتها إيّاه بخطّ يدي فلم يبقَ معي إلا نسخة مصوّرة كاملة منها، وهي التي سأنقلها هنا إن شاء الله. وكان ذلك في مادّة التفسير الاختيارية أثناء دراستي الحقوق في الجامعة في جدة رفع الله عنها البلاء وخلّصها من أعدائها الأشقياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ المقدمة }

الحمد لله الذي هدانا لجنّة القرآن، وآتانا من البينات العظام، وكشف لنا عن الروح القدس والملائكة الكرام، وأرانا من العيان ما يغني عن البرهان، والصلوة والسلام على النبي وآله الطاهرين، الذين اصطفاهم الله على العالمين، وبيّن لنا بهم عن التنزيل وجمال إشراق التأويل. وبعد.

يقول الله خالق كل شئ "ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ"، فلما كان الإنسان قلب وعقل وجسم. وكان أكمل ما فيه القلب لأنه كعبة الإنسان التي عليها مدار حياته ونجاته، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا اجتهاد عقل ولا طول نظر العيون، إلا من أتى الله بقلب سليم، لا يرى غير الله ولا يمتلئ إلا بأمر الله. ولما كانت قيمة القلب بحياته وصفائه وسعته. وليست حياته إلا بذكر الله، المشار إليها في قوله "أومن كان ميتاً فأحييناه"، وليس صفائه إلا بصحته عن النفاق والجحود، وليس ذلك إلا بالاطمئنان بالله، إذ "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"، وليس سعته إلا بالعلم، وهل العلم الروحي غير ما جاءت به الأنبياء، المشار إليه في قوله "وعلم آدم الأسماء"، وكان الجامع لكل ذلك هو كتاب الله الحي القيوم، الذي ليس المخاطب به إلا من لا تأخذه عن الله سنة اللعب ولا غفلة النوم، كان تعلم كتاب الله هو المسجد الأقصى لطلاب العلا، وسدرة المنتهى عند أولي النهى، إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، فالحمد لله منزل الكتاب.

لقد كلّفنا الدكتور عادل بارك الله في عمره أن نكتب بحثاً في تفسير خمسين آية من سورة النساَء المباركة، إذ قد درسنا عليه كتابه "المنهج القويم في تفسير القرآن الكريم" فأراد أن يعلمنا كيف نكتب بحثاً ونعمل بما علمنا عسى الله أن يورثنا علم ما لم نعلم. ولكون الطلاب في المحاضرة تختلف عقولهم، فمنهم مجتهد وآخر مقتصد، فأشار إلينا أنه يجب الاجتهاد ولكنه لم يكلف إلا بقدر وسع المقتصد، وإني لأرى أن الدكتور عادل بارك الله في علمه واسع الصدر، يحب الفكر، ولا يؤاخذ من يقول بغير ما يرى، ولم يجبرنا قط على رأي عنده ويقول "ما أريكم إلا ما أرى"، لذلك فإني سأجتهد بما آتاني الله ربي في فهم الآيات الكرام، لقوله "ولينفق ذو سعة من سعته"، أما من لا يريد إلا أن يحصل على درجة كاملة في البحث رغبة في درجات الشهادة الدنيا فليس ذلك من مطالبنا، إنما نتعلّم لدرجات أعلى، فما ظهر من الحق والخير فإن الحق من ربّي والخير بيده، وأسأله التحصّن في محضر قدسه حتى لا يزلّ القلم في آيات كتابه، "ومن يتوكل على الله فهو حسبه".

{ منهج التدبر }

يقول الله "إن هذه أمتكم أمة واحدة وَ أنا ربكم فاعبدون" فالغاية الأولى من تنزيل الكتاب هو رفع الخلاف السيء بين الفرق والأحزاب وبلوغ قمة جبل عبادة الرب جل جلاله، فالأولى ظاهرية سياسية، والثانية شخصية روحية، وكل ما سبّب أو قد يسبّب البعد عن هذه الغاية فإن علاجه في الآيات المباركة، فأهم ما يبيّنه المتدبر هو ماهية العودة إلى الوحدة، المشار إليها بكلمة التوبة.

يقول الله "خذوا الكتاب بقوة واسمعوا" فالقوة هي أخذ الكتاب كله بوحدة، وعلى أنه وحدة واحدة، لا نؤمن ببعض ونغفل عن بعض، ونأخذه وحده فلا ندخل عليه من خارجه ما ليس منه، فالقرآن تبيان لكل شئ فمن بيّن منه فالحمد لله، ومن زعم أنه ناقص والعياذ بالله فأمره إلى الله هو يحكم فيه وهو خير الفاصلين، وقوله "واسمعوا" هو تبيان لحقيقة الفهم من الروح القدس، إذ لا يفهم القرآن إلا من أيده الله بروح منه وليس القرآن كالحجر حاشا لله وإنما كالماء، وهو وحي يولّد وحياً كالنار التي تولّد ناراً، وهو كتاب روحي يصلح غيب الإنسان الذي إن طهر فاضت الطهارة على ظاهره، فيظهر ذلك في حسن خلقه ورقيّ عقله وجمال هيئته ووجهه المشار إليها بقوله "إن هذا إلا ملك كريم"، فليوجّه المؤمن قلبه لربّه ويحسن الاستماع ويكتب ما يسمع ويشفع ذلك بالبرهان قدر الإمكان، عملاً بقوله "إم لهم سُلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين".

وبما أن القرآن بحر عظيم، كل آية منه بحر عظيم، وفي كل آية منه من العلم ما الله به عليم، فلا يسعنا في هذا البحث أن ننوي الاستقصاء، إذ ما هذه نيّته يحتاج إلى مجلدات كبار، ويعلم تحقيق ما ذكرت المصطفين الأخيار، لذلك عسى الله أن يتخيّر لنا من أحسن المسائل والأقوال، لأنه حتى هذه الخمسين آية تحتاج إلى أعوام، أما إذا أردنا أن نختصر بقدر ما يتطلبه البحث فهذا سهل يسير إن شاء الله، ولكن كما ذكرت غايتي أبعد من ذلك، فأذكر في كل آية ما لا يزيد على ثلاث مسائل إن لم يجري القلب بأمر أكثر من ذلك أو أقل.

ونذكر فصلاً في بيان جملة المواضيع التي اشتملت عليها سورة النساء المباركة، بحسب ظاهر التلاوة، ثم نشرع بعون الله في الآيات المطلوب الاجتهاد في التدبر فيها، فنكتب أولاً مقاطع الآيات التي تتوحد في المحور، ثم ننظر في آية آية من كل مقطع.

وعلى الله قصد السبيل.

...-...

وإذا نظرنا من بعيد سنرى أن في سورة النساء عشرة مواضيع، وهي الأيتام وشؤونهم وأحكامهم، والوصايا والمواريث، والنكاح وشؤونه وأحكامه في مراحله المختلفة، وأحكام القتال في سبيل الله، والحكم بما أنزل الله وأحوال المنافقين وأهل الكتاب من قبل، بيان لشئ من آيات الله في السموات والأرض، وصايا للمؤمنين، وماهية الوحي والقرآن والدعوة إلى ذلك، ودعوة إلى الذين غيّروا الإيمان بالواحد تعالى، وتختم السورة بفتوى من الله في حالة خاصة من الميراث.

بما أن السورة وحدة متكاملة، وكل مقاطعها متلاحمة، فيجب أن يوجد ارتباط وثيق بين هذه المواضيع العشرة. وبما أن ظاهر القرآن قد ألهى كثير من الناس عن حقيقته الروحية، وليس هذا الإلهاء بسوء دائماً لأن الحيوة لا تستقيم بغير هذه الأحكام، فكلٌ من عند الله، ولكن نؤثر جانب القلب على الجسم في هذا البحث عسى أن يظهر الله أمراً جديداً يوسّع من آفاق قلوبنا وعقولنا.

"النساء" هي كلمة تشير إلى كل ما تجدد، وكل ما جاء لاحقاً أو بعد شئ معين، فهذا الحادث هو بالنسبة إلى القديم كالنساء بالنسبة إلى الرجال. وهذا ليس ككلمة إناث التي تشير إلى ما يقبل ويأخذ من شئ آخر من شأنه أن يعرض ويعطي، أي الذكر، لأن الذكر يعطي النطفة إلى الأنثى التي تقبله في رحمها فينتج الولد فبالنسبة إلى الوحي الإلهي، الوحي الحادث الجديد هو كالنساء بالنسبة إلى الوحي الذي سبقه، أي كالقرآن بالنسبة إلى التوراة مثلاً. لذلك قال "إذا جاَءهم ذكر من ربّهم محدث".

"اليتيم" ليس من ليس له أب، وإنما اليتيم من لا يعرف العرب، لأن الرب في الحقيقة هو المربي الروحي للحياة الدنيا والآخرة، وليس الأب إلا مظهراً من مظاهر هذه التربية، وكم قد يكون مظهراً ليس بحسن، أما الرب فهو المربي الأحسن دائماً، فكل نبي قبل أن يأتيه الوحي يكون في مرتبة الغفلة عن الله، لقوله "وإن كنت من قبله لمن الغافلين"، ثم يتذكر بالوحي، قبل الوحي كان يتيماً، ثم يؤيه الله إليه بالوحي فيتذكّر ويهتدي، فكل من لا وحي له فهو يتيم.

والوحي إما أن يكون بوراثة كتاب الله السابق، "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا"، وإما أن يكون بوحي جديد لأن خللاً ما وقع في الكتاب السابق أو في حملة الكتاب السابق، "ذكر من ربهم محدث". فثمة على التحقيق ثلاثة طرق للخروج من اليتم الروحي، الوصية والوراثة وتجدد وحي جديد، وهو المرموز له بالنكاح، لأن النكاح في الأصل الجمع بين الشئ والشئ، فعندما يجتمع الروح الأمين وقلب نبي كريم لينتج كتاب عظيم فهذا نكاح. ولذلك جاَءت الوصية ثم المواريث ثم النكاح وشؤونه. والوصية أن يوصي النبي إلى مختارين لكي يحفظوا الدين ويقوموا به، كوصية إبراهيم لبنيه ويعقوب، والوراثة هي إما أن يحفظ الموصى إليه الوصية من النبي ويقوم بها فيكون قد ورثه إن ارتقى إلى مقامه وأخذ علمه وأحاط به، وإما أن يضيّع الموحى إليهم الدين والكتاب، فيستبدل الله قوماً غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم، ولعل من مظاهر هذا اليوم هو تضييع العرب للقرآن وظهور الغرب، وإيمانهم وقيامهم به أحسن من قيام العرب، والنكاح كما ذكرت هو

اجتماع الروح القدس في قلب الوحي المخلص لينتج ولداً جديداً أو فهماً جديداً "قل نزّله روح القدس من ربّك بالحق" لتنذر وتبشر أيها النبي.

و"القتال" في الحقيقة هو الجدال حتى الغلبة وظهور أمر الله أو أن يبهت الذي كفر، لأن الله تعالى حصر سبيل الدعوة إليه في ثلاثة لا رابع لهم في قوله "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"، الوسيلة الثالثة "جادلهم" هي القتال، لأن الجدال هو قتال فكري، وهو أحسن قتال، لأن أعمال الإنسان تستند إلى أفكاره ومفهومه لأمور معينة، فإن كانت أعماله سيئة فإن أفكاره سيئة، والعلاج يجب أن يقع على أصل وجذر المرض لا على أعراضه، ولذلك كانت الدعوة بحد السيف هي من شأن الأغبياء والجهلة وطلّاب الدنيا، ولهذا قال العزيز الجبار "لا إكراه في الدين"، وأمرنا أن نفهم سبب العمل السيء، ونحفر حتى نصل إلى جذوره، ثم نقتلع هذه الجذور. فمثلاً، رجل يريد أن يفجّر نفسه، لماذا؟ لأنه يرى أن هذا سيدخله الجنة، لماذا، لأنه فهم أن القرآن يقول هذا، أين، يقول لنا "اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم"، نقول وأين أنت من قوله قبل ذلك "قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"، "قاتلوا" فلا يقاتل إلا من يقاتلنا، وكل ما عدى ذلك فهو اعتداء لا يحب الله أهله، عندما لو كان من غير المعاندين سيتوقف عن جهله ويتوب إلى الله، هذا هو القتال الحق. ولذلك جاء به بعد أن بين كيف يحصّل الإنسان الوحي لأن دوره بعد ذلك هو الدعوة إلى الله بالوحي، ولاشك أنه سيواجه منكرين، ولهذا بين له كيف يجادلهم ويغلبهم وإن الله لمع الصابرين.

فإذا ظهر أمر الله، وقام الناس بكتاب الله، فعندها يجب أن نعرف أن الحكم يجب أن يكون بكتاب الله وأمره، ويبين لنا أنه سيظهر منافقين لم يفهموا حقيقة الوحي وأنهم سيكونون مثبطين للمؤمنين في قيامهم بما أنزل الله، وأنه سيظهر من الذين أوتوا الكتاب من قبلنا شئ من العداوة، حسداً من عند أنفسهم لرؤيتهم أن الله نصرنا وأنهم خذلوا، وأننا متوحدين بكتاب الله وهم فرق كثيرة بمذاهبهم وفرقهم وأحزابهم، وسيظهر كذلك ممن لهم نصيب من القرآن ما يؤدي إلى تفرقة المؤمنين، ولذلك يبين لنا كيف نحذر منهم بعد فهمنا لمقولاتهم وأحوالهم حتى نعرفهم بسيماهم.

ثم المقاطع الأربعة الآتية تبين ماهية الوحي، وتعلّم المؤمنين من الأخلاق العظيمة، وذلك حتى يكونوا على بينة من حقيقة الأمور، فلا تتزلزل قلوبهم عند كل كلمة مشكك جاهل، وجتى يحبّوا كتاب الله ويفهموه فيحيوا حياة طيبة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم تختتم السورة بآية ميراث، إشارة إلى أن القرآن باق إلى يوم هلاك كل شئ، يرقه اللاحق عن السابق، حتى يظهره الله على الدين كله، ويتحقق وعد الله بقيام العصر المسيحي وتحقق نبوات الرسل كلها، "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" ولو كره الكارهون لأن سوط العذاب يسوق المعاندين إلى الحق بعد أن يتبين لهم بالتجربة أن كل ما عداه باطل، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً، والحمد لله رب العالمين.

.......———.......

{ الشروع في التدبر في الخمسين آية }

" ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب. يؤمنون بالجبت والطاغوت. ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله. ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً * أم لهم نصيب من الملك. فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. فقد ءاتينا ءال إبراهيم الكتاب والحكمة وءاتيناهم ملكاً عظيماً * فمنهم من ءامن به. ومنهم من صدّ عنه. وكفى بجهنّم سعيراً * "

إن اختلاف الناس في أمر الدين مردّه كله حصراً إلى أحد أمرين، الاختلاف في الكتب والاختلاف في المعلمين. ومثل ذلك هو البئر التي فيها ماء والناس الذين يشربون منها كلٌ بحسب كأسه، الكتاب كالبئر والإمام كالكأس، لأن المنهج الذي يسير عليه هو الذي سيحكم هل يبقى الماء على طهارته، أم هل سيظهر للناس أن للماء لون ما، فإن كان الكأس أصفر وكأن لون الماء أصفر، وإن كانت الزجاجة صافية لا لون لها ظهر الماء على حقيقته.

وبما أنه يهمّنا من حيث الأولوية إصلاح بيت أمّتنا، إذ من يزعم أن له دواء يعالج مرض هو نفسه يعاني منه فإن هذا دليل واضح على عدم صدقه، بل سفاهة منطقه، لذلك ننظر في أمر هذه الأمة ونعرض عما سوى ذلك في هذا المقام.

أحد فرق الدين لها كتاب هوالقرآن وكتاب آخر هو صحيح البخاري، وفريق آخر له كتاب هو القرآن وكتاب آخر هو الكافي، وفرقة ثالثة لها القرآن ومسند زيد بن علي، وإنما سمّوا فرق وتفرّقوا ليس بسبب القرآن، حاشا لله، وإنما بسبب هذا الكتاب الآخر، فهذا مثال على الاختلاف في الكتب.

وفرقة إمامها أحمد بن حنبل، وأخرى الإمام جعفر الصادق، وثالثة الإمام كريم آغا خان، بفارق أن الفرقة الأولى والثانية ينوب عن الإمام مراجع ومشايخ، فاختلفوا لاختلاف المرجع الذين يأخذون دينهم عنه، وهذا مثال على اختلاف الأئمة.

أما ما يريده الله فهو أن يكون كتابه هو إمام الإمام، والإمام مجرّد هادٍ للناس بما في كتاب الله، بدون أي إضافات يزعم أنها مكملة للكتاب العزيز، وأن يبيّن للناس الوجه الذي على أساسه نطق بما نطق وحكم بما حكم، فلا يوجد غنم وراعٍ في دين القرآن، يوجد الله والباقي كلهم يتعلمون منه، وهذا الذي يجعله الله إماماً للناس هو حتى يرى الناس أنه في الإمكان بلوغ هذه الرتبة العالية والدرجة الرفيعة، بالإيمان بآيات الله ودوام التدبر في كتابه وبالصبر على كل ما قد يصيب المرء خلال لذلك، وترك الشهوات الدنية والأخلاق الرذيلة هو أبسط ما في الابتلاء للإمامة، "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا. لما صبروا. وكانوا بآياتنا يوقنون"، وقال "ومن قبله كتاب موسى. إماما"، فكل من يعلّم الناس فهو إمام، وإن لم يستمّ بهذا الاسم، لأن الله يضع الأسماء لأنها تشير إلى حقيقة المُسمّى، لا مجرد كلمات وألقاب جوفاء، والإمام حصراً إما إمام يعلم كتاب الله أو إمام

يهدي إلى النار، لا يوجد معلّم ثالث في أمر الدين، يقول "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا" ويقول "جعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار".

هذا المقطع المبارك يبيّن في هذه المسألة العظيمة، فقوله "أوتوا نصيباً من الكتاب" يدلّ على أن هؤلاء ليسوا ملحدين في دين الله، ولا هم أناس لا حظ لهم من العلم، ولا هم أناس غير مسموعي الكلمة، و"الكتاب" هو كتاب الله، وقوله "نصيباً" دليل على أنهم لا يأخذون القرآن كله، بل يستشهدون بجزء منه على مقولاتهم، وقد يكونوا من العبّاد والزهاد ومن لهم حظ في التأملات الروحية لقوله "أوتوا" فكأنه يشير إلى نوع من العلم اللدني الوهبي، مما يدل على أن لهم مكانة دينية وروحية في قلوب الناس مما يجعلهم يسمعون لهم، "يقولون" إتيانه بالفعل المضارع دليل على أنه يوجد أمثال هؤلاء في كل أمة، خاصة هذه الأمة ولذلك ذكرهم حتى يعتبر من له عقل مستنير، "للذين كفروا" وهم كل من جحد الدين بالمرّة وعاند وقاتل أهل دين الله.

إن كانوا "يؤمنون بالجبت والطاغوت" فلماذا فرّق الله بينهم وبين "للذين كفروا"، أليس المؤمنين بالجبت والطاغوت كافر. يجب أن نعرف أولاً ما هو الجبت وما هو الطاغوت في هذه الآيات المباركة حتى يظهر لماذا هذا التفريق.

عندما قالوا للذين كفروا، "هؤلاء" أي الجبت والطاغوت "أهدى من الذين ءامنوا سبيلاً" يظهر أمران، أولهما أن الجبت والطاغوت بشر، لقوله مقارنة لهم مع الذين ءآمنوا "أهدى"، وقوله "من الذين ءامنوا" أي الجبت والطاغوت بشر أهدى من البشر الذين يتبعهم الذين ءامنوا، وأيضاً أن الجبت والطاغوت خير من الذين ءآمنوا، ولا يقارن حجر ببشر، ولا بشر بحجر، خاصة وأن الكلام عن الهداية، وهي أمر عقلي ليس في غير البشر. بما أن الاختلاف إما في الكتب وإما في الأئمة، والاختلاف في الكتب في الحقيقة هو أيضاً من الاختلاف في الأئمة ويعود إليه، أليست الكتب من وضع الأئمة، فإذاً أصل الاختلاف في الأئمة، وبداية توحيد الأمة هو أن يتذكر العاقل هذه المسألة.

ولأهميتها وأولويتها ذكرها الله هنا، فكلامه عن هؤلاء هو تبيين لهذا الأمر.

قوله "أولئك الذين لعنهم الله"، الملعون كإبليس هو المطرود من الجنة لتكبّره عن أمر الله، فلا حظ له حقيقي في سعادة الجنة، فهؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ويؤمنون بالجبت والطاغوت قد فعلوا كما فعل أبوهم إبليس من قبل، فحكم العدل عليهم كما حكم على من فعل مثل فعلهم، والآن يجعل الله لنا آية نعرف بها من لا حظ له في جنة القرآن ودين الله، يقول "ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً"، ويقول مبيناً معنى نصره لعباده "يؤيديهم بنصره" ويقول "ويؤيدهم بروح منه"، ويقول عن عيسى "وأيدناه بروح القدس"، وليس ثمة إلا روح واحد، لذلك لا تجد في كتاب الله تثنية أو جمع لكلمة روح، فإذاً نصر الله التأييد بالروح القدس، لأن حقيقة النصر هو أن تغلب الجهل الذي هو أساس الظلم، الذي هو داء البشر الأقدم "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" "إنه كان ظلوماً جهولاً"، وبالروح القدس يعلّم الله عبده ويفهمه من كل شئ، خاصة كتابه،

ألا ترى أن الله يذكر التوراة ثم الإنجيل في آية واحدة، لتعلم أن الإنجيل إنما هو باطن التوراة والمقصود الحقيقي من أمثالها وأحكامها، وتراه قال عن الذين لا فهم لهم "كمثل الحمار يحمل أسفاراً"، فالروح القدس هو آية كون الإمام إلهي أو شيطاني وآية الروح القدس أن يكون المؤيد به حسن التفهيم للناس حتى في أكثر المسائل تعقيداً، إلا أن يكون الناس من أهل العناد والعياذ بالله، وأن يؤتى حسن فهم وعمق في القرآن وأن يرى أنه يكفي عن كل شئ، وأن لا يُسأل عن أمر نافع من أمر دين الله إلا ويؤتيه الله جواب مسألته، وغير ذلك مما يعود كله إلى أصل ما ذكرت.

فلو كان التأييد بالروح القدس هو ميزان معرفة الإمام الإلهي من الشيطاني، فما تقول في الإمام الذي يكفّر من يقول بأن الله ما يزال يؤيد بالروح القدس، إن إبليس لعله يكون إمام إلهي بالنسبة إلى هذا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إن نار سقر لا تبقي ولا تذر، وحتى يرد الله على مقولتي الجبت والطاغوت، ويمحقهما محقاً تاماً، يزيد لنا الأمر بياناً، فيذكر لكل مقولة حجة، ترد عليهما في الظاهر، وتشرح حقيقتها ضمناً بالمقارنة وحسن التأييد منه.

الأولى "أم لهم نصيب من الملك"، إن الله قال في أول المقطع المبارك "ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى"، ولم يقل "هذان أهدى" فيدل على أن الجبت ليس فرداً واحداً بعينه بل كل من يقول بمضمون الجبت، ولتبيين معنى الكليّة هذا جاء بالجمع، وقال هنا "أم لهم"، فإلى يوم يهلك كل شئ كل من يقول بما يقوله هؤلاء داخل في هذه الآيات.

إن الله هو الملك وحده لكل شئ إذ هو مالك كل شئ، فيجب أن يسري الدين الذي يريده هو، فإن كان كتابه يبين دينه، كان لا يقوم بدينه إلا الأئمة الذين يهدون بأمره وروحه، فإذاً له الحق وحده في تعيين الإمام الحق من الباطل، ولذلك بدأ بهذه الحجة المجردة، يرد على الذين يرفضون إمامة العلماء بالقرآن وحده، فإن عبدة الجبت والطاغوت يعترضون عليهم، ومما سيقولون، لا يحق لكم تعليم الناس هذه الأمور وما شابه، وأن فلان وفلان وفلان هم أئمة الحق وحدهم وكل دعوى بعدهم باطلة وما شابه، فيأتي الرد الأوّل "أم لهم نصيب من الملك" هل الأئمة الذين تزعمون، أو أنتم أنفسكم لكم نصيب وشركة في ملكي، ألعلكم خلقتم شيئاً من خلقي حتى تنصبوا أنفسكم للحكم معي. وبهذا يفهم العاقل أن الإمام من يبين الله للناس في كتابه أن مثل هذا تعلّموا منه وتفكّروا ولا تكونوا كالأنعام.

فبعد أن عقلنا أن الحكم لله وحده، فكيف نعرف حكم الله، وهذه الآيات تعرض طريقة رسل الله والكتاب الإلهي، ومن الذي يجب على المخلص أن ينظر إليهم في تعلّم كتاب الله، الذي يأخذون القرآن كما أراد الله ويرونه بالعين التي أرادها الله، إذ الشئ الواحد يختلف باختلاف العين التي تنظر بها إليه، ولا يزيدون شيئاً على كتاب الله ولا ينقصون منه شئ، مهما كان الزعم أو الحجة التي يستعملها الناس في ذلك، لنسمّ هذا الشخص وكل من يؤمن به بما يؤمن به بالإمام الإلهي

تمييزاً له عن قرينه وعدوّه الشيطاني، فيقول الله "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً".

من هم آل النبي، أيا كان هذا النبي، آل النبي أزواجه وأبناءه الصالحين. إذ يقول "أنجينا آل لوط أجمعين إلا امرأته" فلولا أنها من الآل لما استثناها منهم، ولا يقول أحد أن إبليس ليس من الملائكة ومع ذلك استثناه الله منهم، لأنه على التحقيق من الملائكة باعتبار أنه كان معهم، وكلمة "الجن" يقصد بها ما استتر.، وأطلقت على الملائكة كلمة الجن في قوله "وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسباً" إذ قالوا الملائكة بنات الرحمن تعالى، والأبناء الصالحين فقط هم من الآل، لأن الله قال لإبراهيم "لا ينال عهدي الظالمين" حصراً للإمامة الروحية في الصالحين من ذريته، وهنا قال "فقد آتينا آل إبراهيم" وأيضاً قال "فمن تبعني فإنّه منّي" فمن لم يتبعه فليس منه، ومدار النسب في الإسلام هو على علم القلوب وليس كما هو في دار الجاهلية على دماء القوالب، تعالى الله عن ذلك، فالنبي يأتي بكتاب، كل من يقوم بهذا الكتاب ويعلمه للناس هو الإمام من آل هذا النبي، أما لو كانت زوجة نبي ولم تأتمر بما في كتاب الله فحكمها كما قال "ادخلا النار مع الداخلين" ولو كان ابن جاهلي لنبي وعصى ربه فكان هو وابن نوح سواء، بل ليس ابنه أصلاً، فالعلم هو النسب الوحيد الذي يربط النبي بالمؤمنين.

من هم الناس في قوله "أم يحسدون الناس"، يظهر بيناً أنه لمّا قابل الناس بآل إبراهيم، وكله هذا في القرآن الذي أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، فالناس هم آل محمد وهم من ذكرت من قبل، الأئمة الروحيين القائمين بكتاب الله رب العالمين.

وقوله "من فضله"، فضل الله علمه الذي يهبه إلى من يشاء من أئمته، إذ يقول "واسألوا الله من فضله" كما سأل سليمان من قبل.

"الكتاب" هو المحرمات، إذ كل شئ مباح إلا المحرمات، فالشريعة لا تُعنى إلا بهذه المحرمات، "الحكمة" هي الأمثال، النبوات، وهي العلم العقلي الملكوتي الباطني، لأنه بفهم الأمثال وعقلها مع حقيقتها يحكم العاقل الظاهر مع الباطن، ويستطيع أن يحسن حكم مملكة نفسه، ولذلك سمّيت بالحكمة، من الحكم ومن الإحكام، و "ءاتيناهم ملكاً عظيماً" هي الإمامة وكونهم أسوة حسنة للناس، ألا ترى أن بعد أن ابتلي إبراهيم ومرّ بكل ما مرّ به، توّج الله له عمله بقوله "إني جاعلك للناس إماماً"، وسرّ ذلك عميق، ونشير إليه بكلمة فنقول، إن صفة الله مالك الملك هي العطاء فقط، فلا يأخذ شيئاً من أحد، وصفة المخلوق هي الأخذ، فإن كان يأخذ أنانية لنفسه فهذا الفاسد، وإن كان يأخذ ليعطي فهذا الصالح، فكلما زاد عطاء الإنسان لغيره زاد قربه من ربه الذي صفته العطاء المحض، وكلما زادت عظمة العطية زاد رفعة في الدرجة، وهل هناك أعظم من عطية العلم الإلهي والوحي، وهل هذه العطية تكون من غير إمام مؤيد بروح الله، فهذه هي الإمامة التي توّج الله بها إبراهيم وكل من يقتفي أثره، ولذلك كانت الإمامة هي الملك العظيم.

"الطاغوت" هو كل من يطغى على حكم الملكوت، إذ الملكوت هو مظهر اسم الله، كما أن الآفاق مظهر اسم الرحمن، وعالم الأنفس مظهر اسم الرحيم، وهذه هي عوالم الخلق الثلاثة لا يوجد في الخلق غيرها، وليس وراءهم وعينهم إلا عالم النفس المتعالية "هو الأول والآخر والظاهر والباطن"، وهذا سرّ "بسم الله الرحمن الرحيم" وهي العين التي يريد الله أن يرى الناس بها كتابه العزيز، وبها يظهر العالم من الطاغية، وكل من تكلّم في القرآن على أنه مفسّر أو إمام بغير إذن من الله الحي فقد أخرج نفسه من الإسلام لقوله "وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون"، فالقرآن محضر الملك العظيم، ومن اقتحم الحضرة بغير إذن للدخول فقد قتل نفسه بيده، وكل من هذا شأنه في الطغيان على حكم الله بالملكوت فهو الطاغوت.

الضمير في "به" في قوله "فمنهم من ءامن به" يعود على مَن، بل قبل ذلك "فمنهم" مَن هؤلاء، لا يمكن أن يكونوا "ءال إبراهيم" إذ قد أثبت أنهم آله وأنهم أئمة مهديين، فإذن تعود على الناس، أي هؤلاء الذين يحسدون، فمنهم من ءامن به، أي بالإمام الصادق من آل إبراهيم، ومنهم مَن صدّ عنه، أليس هذا مما يتعوّذ منه النبي "ومن شرّ حاسد إذا حسد" فقد يكون ثمة فاسد في نفسه ولكنه لا يعمل الشر الذي قد ينتجه الحسد، كالصدّ عن الداعي والمعلّم لكتاب الله، فقوله "منهم من ءامن به" هم الذين غلبت عقولهم حسد أنفسهم فارتقوا وكملوا، وقوله "ومنهم من صدّ عنه" أي الذين عملوا بمقتضى الحسد، فراحوا يشوهون وجه المعلّم أمام الناس، ويرمونه بالتهم الكاذبة، ويمنعون الناس عن الاستماع إليه وإلى قراءة ما يكتب، وإذا تكلّم استغشوا ثيابهم ورفعوا أصواتهم. "وكفى بجهنّم سعيراً" جهنّم الجهل إذ يكفرون بالملكوت فبذلك يكونوا قد سجنوا أنفسهم في سجن الأجسام المظلمة ولم يروا النور الذي فيها والتي هي معبر له، وليس بعد الجهل عذاب إلا وهو أهون منه إذ هو أصله.

وفوق كل ذي علم عليم.

.....—.....

" إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً * والذين ءآمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. لهم فيها أزواج مطهرة. وندخلهم ظلاً ظليلاً * "

إن الله يبيّن الشئ بضدّه، وبأن يجعل مقابل.

فهنا قوله "إن الذين كفروا بآياتنا" تقابل "والذين ءامنوا وعملوا الصالحات"،
وقوله "سوف نصليهم ناراً" تقابل "سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار"،
وقوله "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب" تقابل "خالدين فيها أبداً"،
وقوله "إن الله كان عزيزاً حكيماً" تقابل "لهم فيها أزواج مطهرة ندخلهم ظلاً ظليلاً".

أما الأولى، فكلمة "كفروا" من كفر، وهو وضع الغطاء على شئ، حسناً كان الشئ أم باطلاً، فإبراهيم كان كافراً بالباطل "إنا كفرنا بكم"، ولذلك الكافر إذا مات قيل له "فكشفنا عنك غطاءك

فبصرك اليوم حديد" هذا لمن كان غافلاً، أما العاقل فالغطاء مكشوف عنه اليوم، ألا تراه يقول "لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا" فإن لم يكن غافلاً فلا غطاء عليه أصلاً.

ويوجد فرق بين كفر الشئ وكفر بالشئ، فرق عظيم، فكفر الشئ كقوله "كفروا ربهم" أي غطّوا حقيقة ربهم، أما كفر بالشئ فالمعنى أنه استعمل هذا الشئ ليغطّي به شئ، فالباء باء الوسيلة، كقولك كيف ذهبت، برجلي.

إذا قوله "الذين كفروا بآياتنا" يدلّ على أن هؤلاء قوم استعملوا آيات الله ليحجبوا الناس عن الله، لذلك ذكرهم بعد أن ذكر الذين أوتوا نصيباً من كتاب الله، فهؤلاء هم الذين يظنّ الناس أنهم العلماء ورجال الدين الحق، والناطقين عنه.

ولما جعل مقابلهم "الذين ءآمنوا وعملوا الصالحات" وكان هذا بعد أن ذكر أن الملك لله وحق آل إبراهيم، علماء القرآن، فمعنى "ءآمنوا" بأن الملك لله يؤتيه من يشاء ولا يجوز لأحد أن يتكلّم في كتاب الله بغير إذنه، كما أنه لا يدخل على الملك أحد إلا بإذنه، وإن اقتحمه هلك، وقوله "وعملوا الصالحات" هو أنهم لم يحسدوا آل محمد، علماء القرآن الأحياء، بل سمعوا منهم وتعلموا منهجهم وأحسنوا في مودتهم وطاعتهم، لأنهم لا يطيعون عالم القرآن إن كان ينطق بالقرآن وإنما يطيعون رب القرآن، "من يطع الرسول فقد أطا ع الله".

أما الثانية، فقوله "سنصليهم ناراً"، لماذا جعلت النار رمز العذاب، لأنها تهلك ما يدخل فيها وتفسده وتشوههم، كذلك من لا يأخذ العلم الروحي عن الله فإنه يأخذه عن الشيطان، فيهلك عقله وقلبه وجسمه وعلاقاته، هذا لمن يستعمل آيات الله ليمنع الناس عن التعلّم من الله، فقوله "إن" في بداية الآية المباركة يدل على أنه حتم لا يتخلّف أبداً فكل من يستعمل القرآن ليبعد الناس عن القرآن إلى مذهبه وأحاديثه ومزاعمه، ويزعم أن القرآن هو الذي يقول ذلك، فهو صاحب هذه الآية المباركة، وليس برهان كالعيان، وقوله "سنصليهم" هي من صلة، وهو أن يصل الشئ بشئ، وليس المقصود بالنار النار الجسمانية، فكم من كافر ملعون يسكن في القصور، والإنسان جسم وقلب وعقل، وبما أنها ليست ناراً جسمانية، فهي إما قلبية أو عقلية أو كلاهما، والحجاب نار القلب، وعدم عقل الأمثال إلى الملكوت نار العقل، "كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم"، لذلك كل من لا يأتيه الإذن من الله الحي ليعلّم الناس القرآن، وتراه يجعل نفسه في هذا المقام ويقتحم محضر الملك المقدس سترى فيه أنه يعلّم أن العلاقة مع الله هي كالعبد مع فرعون، افعل ولا تفعل وليس لك وراء ذلك شئ، لا وحي ولا تجلي ولا فناء ولا شئ غير افعل وحرام حتى يأتيك الموت، وتراه ينظر إلى القرآن على ظاهره الذي لا يريده الله كما يزعم هو، فالقصص أمثال، وهو يقول أنها تاريخ، ولهذا لا يعقلون الأمثال فتهلك عقولهم بهذا، وبأنهم يزعمون أن الدين لا يجوز أن يفهم بالعقل وما شابه، سبحان الله وهل نزل الدين إلا من الملكوت، العقل التام.

وعكس هؤلاء المحرومين لجرمهم، هم من قال فيهم "سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار". ما الفرق بين قوله "سنصليهم" و قوله "سندخلهم"، الأصل للظلمات والنور هبة، كما أن الليل قبل

النهار، والغرفة مظلمة حتى يأتي المصباح، فالشئ متصل بالظلمة بنفسه ما لم يأت النور، فالباطن موصول بالنار حتى يأتي النور، وبما أن الظلمة والنور لا يجتمعان في مكان واحد، فهذا مستحيل، لذلك عبّر القرآن أن ثمة مكان هو الجنة ومكان آخر هوالنار، وجعل رمز النور هو الدخول إلى الجنة، وليس دخول قبل خروج بديهة، وبما أن الأمر المذكور هو أمر باطني معنوي فالخروج والدخول في العلم والمفاهيم. فمن اعتقد باطلاً ثم نظر فاعتقد حقاً فقد خرج من النار إلى الجنة بنور الله. وبما أن الكلام هنا على العلم الرباني والاعتقادات السيئة التي يدعوا إليها من يظهرون وكأنهم المعبرين عن أمر الله بغير إذن منه، النار هي الأخذ عن هؤلاء، والجنة هي الأخذ عن الله والملكوت.

لماذا كان رمز العلم القرآني هو الجنة، كلمة "جنة" هي من "جن" بمعنى الشئ الذي يستر الشئ، كقوله "فلما جن عليه الليل" أي ستره عن الأعين بعدما أحاط به من كل مكان، ولذلك سمّي الخفي جنّي، وأيضاً "الجنة" هي المكان الجميل الملئ بالأشجار والأزهار والمناظر الجميلة البديعة، وهذا ظاهر من وصف الجنة في القرآن. وعلم القرآن يستر العيوب والأخطاء التي هي الأصل في الإنسان، لأن الأصالة للظلمة في هذا العالم، وهو أيضاً سبب لانعزال المتدبّر عن الناس ولهوهم ولعبهم، فيختفي عن مجالسهم وباطلهم، وتراه يأنس بليل الغيب الذي يجعله في سعادة تجعله لا يشعر بنفسه من فرط تجلّي نور الملكوت في باطنه الذي هو أكبر من ظاهره. والقرآن أجمل مكان، وكل آية فيه كالبذرة التي بتكرار التدبر والنظر العقلي فيها وأن يكون قلب العارف هواه في ربّ، كنزول المطر ونور الشمس والهواء النقي، يجعل البذرة تظهر ما فيها، ثم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والمؤيد بالروح القدس يعرف كل هذا. ومن يسمع للمؤيد بالروح القدس أيضاً سيعرف كل هذا.

لماذا كل هذا التأكيد والتكرار في أن الجنة "تجري من تحتها الأنهار"، لأن النهر هو مسلك علم ما، وقوله "تحتها" يدلّ على أن هناك فوقها، والفوق هو الظاهر فالتحت هو الباطن، وكذلك الآيات المباركة، أنهارها لا تنضب ولا تفرغ مهما كثر الشاربون.

أما الثالثة، فما سبب هذا النوع من العقاب، إذ العقوبة من جنس المعصية. قبل ذلك يجب أن تعرف لماذا أنزل الله وحياً، فاعلم أنه ثمة طريقان إلى معرفة الصواب من حيث الأصل، إما بالتجربة والخطأ وإما بالتعلّم من خبير أو الاعتبار بمن وقع في الخطأ، فإما النظر أو السماع، الأول طريق الألم، لأن الذي يريد أن يجرب كل شئ ويخطئ ويتعلّم من خطأه فإنه سيمرّ بكثير من الآلام كان من الممكن أن يصل إلى نفس النتيجة لو سمع لخبير، والثاني طريق الوحي، الذي يعلّم أمراً ما، فمن عمل به أراح نفسه، ومن أراد أن يخالفه فإنه سيقع في الألم ثم سيندم، وقد لا ينفعه ذلك في بعض الأحيان، ثم سيتعلم ويصل إلى أن الأمر الذي جآء به الوحي من عند الله هو أحسن الأمور، ولذلك كان الوحي "رحمة للعالمين".

والكلام هنا عن أناس تركوا القرآن، أي تركوا طريق الوحي، فإذاً هم في طريق الألم، أي تجربة ثم تفشل ثم تجربة أخرى ثم تفشل وهكذا. ولذلك قال "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً

غيرها" والجلد هو الظاهر الذي يغطي جسم الإنسان وعمل الإنسان هو الذي يغطي حياته، وكلمة "نضجت" معناها احترقت، أي فشلت تجربتهم وندموا على عملهم، وأيضاً معناها وصلت إلى مرحلة معينة وغاية ما، كقولك نضج اللحم أي بلغ الغاية من الطبخ أو الشوس وأصبح صالحاً للتناول، كذلك الذين يتركون وحي الله فهم ولاشك يسيرون في طريق التجربة والفشل، أي طريق الألم، في كل شئ، صغيراً أو كبيراً، بداية من رد السلام إلى ما شاء الله، فتراه لا يريد السلام كما أمر الله، فيكرهه الرجل فيكيد له بعد مدة أو يقدح فيه عند المسؤول عنه، فيفصل من عمله ويصير إلى الشارع، فيتعلم أن يريد السلام، ثم قال "ليذوقوا العذاب" لأنهم إذا ذاقوا عذاب البعد عن تعاليم الوحي كان سبباً حسناً للعودة إليه فينعموا بالراحة، أما المعاند فهو من الخالدين، ولذلك ختم بقوله "وكان الله عزيزاً حكيماً" فسبب وجود العذاب هو لحكمة وليس تشفياً ولا لأي سبب غير هذا الذي ذكرناه هنا.

ومقابل ذلك قوله "خالدين فيها أبداً" ليشير إلى أنه كما أن المخلصين خالدين في النعيم كذلك المعاندين خالدين في الجحيم، جحيم الألم والندم.

وبالمشرب الإلهي نقول، إن النفس المتعالية عين كل شئ ومتجلية لكل بشئ بكل شئ، "كل يوم هو في شأن"، فتظهر في كل شئ ولكن يرى المتأله بحسب حاله ومقامه، ولا يعني ذلك حصر التجلي في نفسه وإنما اختلاف حال عين القابل إذ "فأينما تولّوا فثمّ وجه الله"، فقوله "إن الذين كفروا بآياتنا" معناه الإلهي هو أنهم لا يروا مظاهر النفس المتعالية، إذ الآية دليل على شئ، وآية الله دليل على نفسه، والكفر التغطية، والتغطية محو، ومحو المظاهر يعني الفناء في الظاهر، "كل شئ هالك إلا وجهه"، لذلك قال عنهم "كلما نضجت جلودهم" أي احترقت وجوههم، أي فنيت أعيانهم الممكنة في العين الواجبة بتجلّي القدس نفسه الذي هو هو ولا غيره، "بدلناهم جلوداً غيرها" أي أرجعنا لهم ذواتهم وجعلناهم يشعرون بأنفسهم مرة أخرى "ليذوقوا العذاب" يتذوقوا مراراً وتكراراً لذة وعذوبة السفر إلى العين المتعالية، والعشق الدائم الهائم في بيت الأزل "هو الأول والآخر والظاهر والباطن"، إذ لو لم يحجبهم بعد أن رأوه لما دروا لذّة ما رأوه، إذ في حال الفناء في المعشوق لا يشعر المتأله بشئ إلا هو، بل لا شاعر ولا مشعور في المقام الأحدي، أما بعد أن يضرب سور الممكنات والخلق ويتذكر لذة الفناء في الحق فيقول وقتها "الحمد لله الذي هدانا لهذا"، وختم بقوله "وكان الله عزيزاً حكيماً" أي فرد لا تركيب فيه ولا تفاوت، من الإحكام، وقمة الإحكام البساطة، وهي بساطة الوجود المطلق في غيب الهوية الحاضرة، وقال "عزيزاً" ثم حكيماً لأننا نعلم أحديته ثم بساطته من حيث التدرج الصعودي. وهو طريق العبودية.

ما معنى ذكر كلمة "أبداً" بعد "خالدين فيها"، فلو كان الخلود هو الدوام في المكان أو الحال، فلماذا "أبداً"، أولاً يجب أن تعرف أن كلمة "أبداً" لا تعني بالضرورة الوقت الذي لا ينتهي، لقوله "فلا تقبلوا لهم شهادة أبداً" أي حتى يموتوا، و"خالدين" هي من الخلد، أي العقل، وارتبط به لأن العقل ليس له غير الزوجية والتفكّر في المخلوقات، والمخلوقات هي محل قبل وبعد، ما يُسمّى بالسنين والوقت، فقوله "خالدين فيها" هو ما ذكرناه من قبل من أن العالِم بالقرآن ينوي أن يكون كل وقته في القرآن والتدبر فيه، إذ القرآن من عالم الأمر ترجمان الخلق "ألا له الخلق والأمر" كما

أن الزوجية والوقت في الخلق كذلك هي في القرآن، وقوله "أبداً" أي إلى أن يموتوا، فكل حياتهم بالقرآن وفي القرآن، والعمل بالقرآن هو من أحسن وسائل التدبر فيه، ومن أحسن المداخل إلى فهمه، "فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه"، فهذه الآية وعد من الله لكل من يحب القرآن ويجعله محور حياته في أنه سيحفظه ويجعله فيه إلى مماته.

أما الرابعة، فاعلم أن الذي يترك طريق الوحي ويسير في طريق الألم فإنه لا ريب سيصاب بالذل، وسيقع في الجهل، أما أتباع القرآن فلهم العزة لأنهم يعملون به فيختصرون الألم إلى السعادة، فتكون قلوبهم كالرحم لنطف آيات الله ووصاياه والأخلاق التي يعملها ويفهمها لعباده المحبين. وتكون حكمتهم وكلامهم كالظل الذي يقي من حرّ شمس التجربة الحار الحارق، ولذلك جعل "عزيزاً" مقابل "لهم فيها أزواج مطهرة" إذ تزوجت قلوبهم القرآن الذي "لا يمسّه إلا المطهرون"، وجعل "حكيماً" مقابل "وندخلهم ظلاً ظليلاً" فلا يصيبهم أدنى حرّ إن هم أحسنوا في التدبر والعمل بما يوصي به الله ويأمر به.

وتأمل كيف جعل الله لآل إبراهيم ثلاثاً وجعل في الجنة ثلاثاً، الكتاب والحكمة والإمامة، والجنّات والأزواج والظل التام. الكتاب هو محلّ الجنّات، والحكمة هي الأزواج المطهرة لأنها ظاهر يدل على باطن، والإمامة لأنها الظلّ الواقي من حرّ الجهل والاختلاف والاقتتال والوحشة.

اعلم أن في القرآن لعمقاً ينقلب فيه كل شئ. فيصبح العالم جاهلاً والجاهل عالماِ، ويتجلّى هذا العمق في المشرب الإلهي، فهذه العين تظهر أن النار جنة وأن الجنة نار، "قد علم كل أناس مشربهم".

لولا المقام لبسطنا المقال ولكن نقبض فنقول، إن الجنة هي أكبر حجب الغفلة، فقوله "سندخلهم" شرك، لأن في الهوية لا يوجد داخل وخارج، وقوله "تجري من تحتها" شرك، لأنه لا فوق ولا تحت، وقوله "خالدين فيها أبداً" كفر لأنه لا زمان إلا في الخلق، وقوله "أزواج" أيضاً شرك لأن الزوجية خلق والخلق خيال والخيال وهم وهوى، وقوله "ظلاً ظليلاً" فقمّة البُعد، إذ ما أبعد الظل عن الشمس.

وفوق كل ذي علم عليم.

.....—.....

"إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. إن الله نعمّا يعظكم به. إن الله كان سميعاً بصيراً * يأيها الذين ءآمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شئ فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً * "

إن الأحكام السياسية التي يتبعها الناس ونوع الحكومة التي تنشأ بينهم هي في جذرها نابعة من الأحكام الروحية الباطنية التي تحتويها عقولهم وقلوبهم. ولذلك تكون الحكومة مناسبة لأحوال

الشعب النفسية، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا. وهذا بحسب مجموع الناس وأكثرهم، فإن كان أكثر الناس على نفسية معينة ولّد ذلك الحكومة المناسبة لهذه النفسية. والقلة تبع للكثرة. فأصل الحكومة قلوب الناس.

فأي إصلاح يريده الناس يجب أن يبدأ من قلوبهم وعقولهم، بالعلم، والمعلّم الإلهي العاقل هو خير من يقوم بذلك، وهذا المعلّم الرباني يستند إلى كتاب الله، إذ ليس ربانياً إلا بذلك، وهذا المعلّم سيواجه عقبات من علماء السوء وغير ذلك، ولذلك بدأ الله بذلك في المقطع الأول، ثم هنا بين ما يجب أن يكون عليه الحال بعد تعلّم الناس من الرباني، فالإمام الإلهي العالم بالقرآن هو أصل الحكومة الإلهي كما يريدها الرحمن.

إن الله قبل أن يخلق الخلق حدد الغاية وكمال هذا الخلق الذي يجب أن يصل إليه، ولنسمّ هذه الكمال، وكمال الخلق هو بأن يصل إلى السعادة المحضة، نعم لعله هدف بعيد للبعض، ولكن لولا هذه الغاية لما خلق الله خلقاً، إذ إنه خلق ليفيض من محض نعمته وخيريته على خلقه وعباده "بيده الخير"، وكل كمال وخير يشمله اسم النور، والنور ناقص وتام، ليس بحسب نفسه وإنما بحسب ظهوره في القابل له، كنور الشمس، هو واحد من حيث نفسه، ولكن ناقص في وقت الفجر، تام في وقت الظهر، وهذا النور التام هو الغاية التي يريد الله من أرض عباده أن يتوجهوا لها لينالوا سعادتها، وظهور النور التام هو المعنى في اسم المسيح، أي الذي يمسح كل الظلمات، من غفلة وجهل وعداوة وفقر، إلى الحضور والعلم والسلام والغنى، إلى النور التام، وهو العصر المسيحي، فإذن خلق الله الخلق من أجل المسيح، أي المملكة المسيحية، وهو معنى يوم القيامة.

والإنسان، أياً كان، من أي مكان وزمان، إذا تجلّى فيه النور التام فهو قد حقق غاية الخلق، أي صار كالمسيح ولهذا صح منه التبليغ عن الملكوت، إذ هو من الملكوت، مقر النور التام، ومهمته أن يجعل حكم الملكوت على أرض الآفاق والأنفس، فالإمام الإلهي هو المسيح، ومهمته أن يجعل كل إنسان كالمسيح، لأنه في غاية الخلق عند الله كل إنسان قد بلغ الكمال بالقوة، وبالمسيح ودعوته وعلمه وإخلاص الناس يشرق فيهم هذا النور حتى يتحقق بالفعل والحق، بعد أن كان كالرؤيا بالنسبة للخالق فأصبحت حق، كرؤيا يوسف فافهم، فهذه الآية تخاطب الناس أولاً، الذين عقلوا غاية الخلق وأخلصوا لهذه الغاية الربانية. وتقول "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" فإذا أدوا، وصار القضاء إلى الربانيين يقول الآن للربانيين "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"، ومن أبى من الناس أن يسير في طريق الخالق وأراد طريق الألم يقول له "إن الله نعمّا يعظكم به"، ثم يعود إلى الربانيين القضاة الذين يجب أن يحفظوا قدسية محضر الله وحكمه ويقول لهم "إن الله كان سميعاً بصيراً" فيسمع أحكامكم فاجعلوها حسنة وسيعرف الذين تحكموا عليهم فلو عدّلوا أزيد من إكرامي لكم، وإلا فإني سأرى بكاؤهم وتضرعهم ووقتها لن تجدوا من دوني موئلاً ولا ملجأً.

إن الأرض كانت قبل أن يخلق الإنسان، فلا يصح لأحد من الناس أن يزعم أنه يملك أرضاً ولا شيئاً، هذا من حيث الأصل، فالناس على الأرض كالضيوف. فمن زعم أنه يملك غرفة في بيت

مضيفه فقد افترى إفكاً وسرق، لو يفهم الناس هذا الحكم البديهي لما كان الحال على ما هو عليه، فإذن الأرض ملك لخالقها فقط.

فلما جعل الناس في الأرض، وأراد الخالق أن يحققوا غاية الخلق، ملأ الناس الأرض، وبما أن كل منهم يريد أن يحيا، والمعاش يكون بالطعام والسكن واللباس، وما يتفرع من ذلك، وكان بعض البشر لا زالت فيهم الوحشية أو شئ من آثارها، فاحتاج الناس إلى قاض يحكم بينهم، حتى تسير أمور الحياة على ما يرام لكي يحققوا غاية الخلق. أما إذا لم توجد مشاكل بين الناس فأي حاجة للحكومة والقضاة، اللهم إلا من باب تنظيم ما يحتاج إلى تنظيم. والحكومة تشريع، وهو من العدل وكتاب الله، وقضاء وهو الربانيين الذين ذكرنا، والعمل بمقتضى الحكم وهو ما يجب أن يرضى به الناس وإلا فسدت الحياة ولم يتمكنوا من إتمام الغاية من الخلق، فأينما وجد عقلاء يريدون أن يحيوا ليتموا ما أراد الخلق من إعطائهم من السعادة والنور التام كان الناس في حاجة إلى القضاة في أغلب الأحيان، فالقضاة هم رأس الحكومة الإلهية.

ولكن كثرة الناس، وتفرّقهم في الأرض، ونشوء دول مختلفة في أساسها وغايتها، جعل بعض هذه الدول يطغى على الغاية التي خلق الله من أجلها الخلق، وأصبح همّ هذه الدول الأمور الجسمانية فحسب، وطالما أن شهوات الجسم إذا صارت غاية في ذاتها صارت مطلقة لا حد لها، وكانت موارد الأرض يوجد حد لها، وكان حب الناس للراحة أكثر مما ينتج أنهم يريدون من يعمل لهم ويعبدهم ليخدمهم في شهواتهم الجسمانية السيئة، نتج عن ذلك أن ثمة دول تسعى إلى إنشاء قوة يقهرون بها الدول التي أضعف منهم، حتى يسخروهم في إنتاج ما يريدونه.

ولأجل ردّ هذه الجيوش الشيطانية كان على المؤمنين بغاية الخلق وأمر الخالق أن ينشئوا جيوشاً أقوى وأعظم من جيوش حزب الشيطان، ليرهبوهم فلا يهاجموهم، فحينها قد كفى الله المؤمنين القتال، وإلا فإن الله ناصر جنده وهو مع الصابرين. ولقيادة هذا الجيش يحتاج الناس إلى ملك، لأنه في شؤون القضاء وأمور التنظيم قد تنفع الشورى والجدل وطول البحث عن الأنسب، أما في حالة الحرب فإن قال البعض نعم وقال البعض الآخر لا، قُتلوا جميعاً، ولذلك احتاجوا إلى ملك، وهذه الحالة التي ذكرنا هي معنى مَثَل طالوت، فالملك هو القائد الذي يملك القرار الفاصل في المسألة الحربية، فلا يجادله أحد ولا يرد أمره أحد.

فثمة حالتان لا ثالث لهما، حالة العقلاء ويحتاجون إلى القضاة، وحالة الأعراب الوحوش ويحتاجون إلى الملوك.

فالمدينة والدولة التي يهددها عدو خارجي في أي لحظة، ويهددها تفرق أصحاب نعرات الجاهلية الذين قد يثب بعضهم على بعض في أية لحظة، إذ لا مجال عندهم للحياة مع الرب أو غاية من خلق، فهؤلاء لا ينفعهم إلا ملك يحكم فيفصل، إذ هم كالوحوش لا يروّضها إلا السوط والسجون، وإن أراد قليل العلم أن يغيّر نظام الحكم الملكي القائم على هؤلاء وأمثالهم فإنه لن ينتج إلا حرب

أهلية بين وحوش الغابة، والكلاب لا تعرف إلا النباح وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير، فلا شورى ولا نقاش ولا يجب أن يُعطى أمثال هؤلاء مجال لأي شئ من شؤون الحكم وإلا هلك الكل.

فإذا ارتقى البشر عن الوحشية، وتنزهت الدول عن الوثوب على بعضها البعض، وهم إلى هذا سيصلون عاجلاً أم آجلاً إن شاء الله وقد شاء قبل أن يخلقهم عز وجل، وتعالى عن العبث واللعب واللهو، عندها لن يحتاج الناس إلى أكثر من القضاة لحل مالبد من وقوعه في أغلب الأحيان.

وفي هذه الآية يعلّم الله هذه الغاية، والحمد لله، فإذا حققوها صاروا مؤمنين بحق، لأن العلم قبل الإيمان، وكما قلنا أن غاية الخلق لا تحقق إلا في مجتمع العقلاء الروحانيين، الذين ءاثروا النور على شهوات الشياطين، فالعلم وهو قمة العقل، ثم الإيمان بعده وهو مؤسس عليه، فيأتي النداء بقوله "يا أيها الذين ءآمنوا".

فيرسم، أو بالأحرى يبين لنا الخالق ما رسم من قبل أن يخلق الخلق، ويبين لنا أن المجتمع الذي يريده فيه أربعة، الله والرسول وأولي الأمر والمؤمنين، ولما قدّم ذكر المؤمنين فإنه يفهّم أن المؤمنين هم الغاية وهم الذين جعل كل شئ آخر لخدمتهم وسعادتهم وإعطائهم.

"الله" هو الملكوت بنوره التام الذي هو مشرق في قلب الرباني المسيح، وكتاب الله الذي يحكم به أيضاً لأن كتاب الله إنما هو مظهر الملكوت التام وترجمانه الأعظم، فالرباني يأخذ من الملكوت ويأخذ عن كتاب الله، وهذا هو مصدر الحكم والتعليم في المجتمع الكامل، في المملكة المسيحية.

و"الرسول" هو المسيح، محور الحكم والفاصل عند الاختلاف، إذ لابد لكل جماعة حتى لو كانوا ثلاثة من واحد يفصل في الخلاف وإلا وقعت الفرقة وضاع الأمر، وسمّي الرسول لأنه مبلغ حكم الملكوت في العالم.

و"أولي الأمر منكم" هم القضاة ورؤوس أي جماعة أو طائفة تدير شأناً من شؤون المملكة، وقوله "منكم" دليل على أن هؤلاء يجب أن يكونوا قد وافق عليهم الناس واختارهم.

وإن الله اختار الرسول وما على المؤمنين إلا الموافقة إن عرفوا وأرادوا أن يتمموا غاية الخلق، "ما كان لهم الخيرة"، إذ لو عاد على الناس لعاد أصل الخلاف، إذ كل سيختار من يهواه من أهله، ثم إن الملك هو الذي يعين من يشاء، أما أولوا الأمر فإنه يختارهم الناس وإن اختلفوا فيهم فصل الرسول في ذلك، ثم من كل أهل بلدة يخرج منهم من ينفع أهلها في مختلف شؤونهم، تحقيقاً لقوله "منكم" وبركات ذلك يعلمها أهلها.

ثم يقول "فإن تنازعتم في شئ"، أي إذا تنازع المؤمنين وأولي الأمر، أو إذا تنازع أولوا الأمر مع بعضهم البعض، وكان لا يوجد سبيل للتوفيق والصلح، وكان الخيار إما الاقتتال وإما الفرقة، فإن الله يأمر بقوله "فردّوه إلى الله" أي إلى كتابه، فإذا وجدتم ما يفصل الخلاف لطرف فعلى الطرف الآخر أن يقبل، وتدارسوا القرآن سوياً لتعرفوا الحكم سوياً، ولا يكن همّكم الغلبة وإنما إظهار

السنة، سنة الله وحكم الله في المسألة المتنازع فيها، وإن مازلتم في خلافكم فردّوه إلى "الرسول" إذ هو مؤيد من الله بفهم أحسن من فهمكم "ففهمناها سليمان".

ثم يبين السبب الذي من أجله يجب أن يتوحد الناس ولا يعاندوا إذا عرفوا الحكم فيقول "إن كنتم تؤمنون بالله" وهو صاحب الحكم، إما بكتابه وإما بقول رسوله الذي هو منه أيضاً، إذ المسيح يحكم بكتاب الله وبما يفهمه الله "فاحكم بينهم بما أنزل الله"، و"اليوم الآخر" وهو الغاية من الخلق، إذ كما عرفت فإنه إن لم تؤمن بغاية الخلق فلا حاجة من الحياة أصلاً. وتمام السعادة هو معنى "اليوم الآخر" فإن المشاكل والنزاع سبب للشغل بالدنيا عن النور والتعلّم من الملكوت، لذلك على المؤمنين ألا يتنازعوا في ما لا فائدة فيه، وليتنازل من لا يضرّه التنازل ضرراً يمنعه عن التعلّم وإتمام النور في الأرض، والقضاء هو الفصل في ذلك إن استعصى على الناس الحل.

ويبيّن الله أن النزاع إما أن يكون على أمر ظاهر دنيوي، أو على أمر باطني عقلي، وكلاهما سبب للفرقة ونشوء الخلل في جماعة المؤمنين المتألهين، ولذلك إن اتبع الناس حكم الله وطريقته كما ذكرنا فإنه ستؤول أمورهم الدنيوية إلى الخير وسيتعلمون العلم الحقيقي والوجه الحق في المسألة التي يتنازعون بشأنها "ذلك خير وأحسن تأويلاً" إذ في كل مقولة وجه حق، مهما كانت باطلة، لأنه لولا وجود وجه الحق لما ظهرت إلى عالم الحق أصلاً، وقد يستتر هذا الوجه خلف حجب كثيرة، ولكن المسيح بحكم أنه فانٍ في إرادة الحق الأعلى، فإنه يريه الله وجهه أينما كان "فأينما تولّوا فثمّ وجه الله".

فإذا جاءَ اليوم الموعود، والوقت المعلوم، وقامت المملكة المسيحية في جهة من الأرض، ثم وجد من يدعي أنه يؤمن بكتاب الله في جهة أخرى من الأرض، فإن الله يخاطبه في الآيات التالية. وأيضاً بعد أن يعرف الناس غاية الخلق وحكم الله، ثم لا يزالون يريدون الحيوة الدنيا وسوء حالها وفساد أحوالها، ويرجعوا في أمورهم وعلومهم وشؤونهم إلى غير ما يريد الله، فإنه أيضاً يخاطبهم في الآيات المباركة التالية، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

وفوق كل ذي علم عليم.

.....—.....

" ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به. ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم ثم جاءَوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً * "

ليس الإيمان عقائد ولا طقوس وإنما العمل إقامة حكم الله والملكوت، وكل من يظن أنه إذا قال، إني أؤمن بكذا، أو سمّى نفسه باسم الدين، حقاً كان الدين أم باطلاً، أياً كان، فإن الله يسمّي هذا الرجل بقوله "يزعمون" لأنه لا يمكن لمؤمن يعلم أنه خلق لإيواء الملكوت في عالم الآفاق، ويعلم

أن الله وكتابه هو أحسن الطرق، ثم يذهب في شؤون حياته إلى أحكام غيره، ويجعل محور حياته غير أمر الله، هذا تناقض لا يقبله الله.

بل أكثر من ذلك فإن الله يقول "يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت" ولم يقل أنهم تحاكموا إليه، بل مجرد وجود الإرادة مخرج للرجل من الإيمان التام بالله وكتابه ورسوله، مجرد وجود الإرادة، لأن الإرادة إنما تتكوّن إذا وجدت القناعة، والقناعة آية الرضا، فإرادة الطاغوت رضا به، والراضي بالشئ معه في مقامه. هذه مثل قوله "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض" ولم يقل "للذين لا يعلون في الأرض" لأنه لو قال ذلك لجاز إذاً وجود الإرادة في غير حكم الله، فإذاً الإيمان التام هو أن تكون كل إرادة المؤمن وعمله لإقامة حكم الملكوت لأنه الأقوم والأحسن.

وظاهر أن "الطاغوت" بشر، وهل يتحاكم البشر إلى حجر، وهذا البشر هو كل من يحكم بغير الملكوت، ولعل سائل يقول، كيف نعرف الحاكم الطاغية من غيره، أقول جواباً بسيطاً: اسألوه عن الملكوت فإن عرفه كان بها، وإلا فمن لا يعرف شيئاً كيف يكون يحكم به، وإن عرّفه لكم، كأن يكون حفظه أو له شئ من الاهتمام به، فإنه إذاً مؤاخذ في أحكامه بمقتضى كلامه، فتكون الحجة عليه إذا جار أقوى.

ثمة تساؤلات تظهرها هذه الآية المباركة، فماذا إذا كانت الحكومة طاغية، أو على الأقل لا تحكم بحكم القرآن، ومؤمن ما ظُلِم في هذه الدولة، فماذا يفعل. الجواب هو هذا، الذي ظلم إن كان مؤمناً فإنه سيرد له حقه وإلا فليس بمؤمن لأن الله يقول أن الظالمين هم الكافرون، وإن كان كافراً راضياً بحكم غير حكم الله، فهو إذاً راضٍ بحكمِ هذه الدولة، فالأحسن أن يجادل المؤمن أن يأخذ حقّه من غير طريق الحكومة، كأن يبعث وسيطاً أو يكلمه بنفسه، فإن أبى، فقد جعل على نفسه سبيلاً، فيذهب المؤمن إن كان يريد حقه إلى الحكومة ولا حرج عليه بعد ذلك وأخذ بعض الحق خير من عدمه، وإن حُكِم له بأكثر من حقه فيرد المؤمن الباقي لصاحبه الذي ظلمه، لأنه إنما رضي بالحكومة ضرورة لأخذ حقه فقط، فما فوق الحق لا يجوز لمؤمن أخذه إذ يخرج بذلك عن العدل.

وماذا إذا طلبت الحكومة الطاغية أن يجنّد الناس في الجيش هل يستجيب المؤمن أم ماذا. الجواب هو هذا، إذا كانت الحكومة تدافع لرد عدوان آت عليها فإن الاستجابة جائزة، لأن رد عدوان الظالم من الإيمان بالله، أما إذا كانت تريد القيام بحروب توسعية، أو فتوحات أو مهما سمّاها الناس، وهي هجوم على من لم يهاجمنا، فإن هذا عين الكفر، والله لا يحب المعتدين، فإن الله قد حصر القتال في الذين يقاتلوننا وسمّى ما وراء ذلك اعتداء.

وماذا إذا وقع بين مؤمن ومؤمن خلاف في أمر ما من أمور الحيوة الدنيا، كالتجارة والنكاح وما شابه ذلك، فهل يجوز لهم التحاكم إلى الحكومة التي تحكم بغير حكم الله، الجواب على هذا هو أول ما تذكره الآيات المباركة. وهذا أوّل كفر بالطاغوت، إذ لمّا يتحاكم المؤمنين والناس إلى حكومة

ما فإنهم يقوّنها ويمدّونها بدم الحيوة. أما إذا أعرض الناس عنها، فإنها تصبح كشجرة لا ماء يسقيها، تموت بعد حين، وعلى المؤمنين أن يتحاكموا إلى عالم بالقرآن، ويسألونه أن يحكم لهم بالقرآن ويبيّن لهم وجه حكم من القرآن، فإذا ظهر لهم الأمر، فيجب عليهم أن يتصالحوا ويقيموا الأمر بينهم بلا اختلاف ولا بغضاء، بل يتحابوا ويتراحموا، وإذا أبى أحد الأطراف الحكم، ولم يعلل ذلك بأن العالم قد أخطأ في الحكم، وأظهر هو الحكم من القرآن ورضي به الحاكم فالحكم ما قاله الخصم، أما إذا لم يرض العالم بالقرآن وأظهر خطأ احتجاجه، فيجب عليه أن يرضى بالحكم حتى لو كان عليه شديداً، لأنه إن أبى فإنه بذلك يقيم الفرقة بين المؤمنين، ويدعم حكومة الظالمين، فإذا أصرّ على عناده دخل في زمرة الظالمين ويكون الجواب هو نفس الجواب الذي ذكرناه على المسألة الأولى.

"الرسول" في الآية هو العالم بالقرآن الذي أذن الله له وأيده بروح منه، وإذا سكت كل من لم يأذن له اله سيظهر من أذن له الله، وإن افترى أحد على اله الكذب فإنه لا يحكم بالقرآن أصلاً إذ لا إيمان له بالله، وهل يفتري على الله الكذب من له ذرة إيمان، ولو افترى وحكم بالقرآن أخذ حكمه لأنه حكم الله وليس حكم هو فالرسول هو الحاكم بحكم الله، لأنه مبلغ لحكم الله، ولذلك قال "تعالوا إلى ما أنزل الله" ثم "وإلى الرسول" ويدل هذا التقديم على أنه يجوز للمتخاصمين أن يبحثوا بينهم عن حكم الله بالنظر في كتابه، فإن لم يجدوا أو اختلفوا رجعوا إلى العالم.

وفي قوله "وإذا قيل لهم" دليل على أمر شديد الأهمية، فتأمل في قوله "قيل لهم" معنى ذلك أنه ثمة من يقول لهم، وبما أنه يدعو إلى كتاب الله فإنه من المؤمنين، فالفهم هو أنه في دولة لا تحكم بالقرآن، على المؤمنين أن يقيموا مكاتب أو ما شابه للتحكيم، ويقولوا للناس أن هذا المكتب يحكم على أساس القرآن، ثم الناس تختار ما تريد، ولكن عطاء المؤمنين عام للكل ولا يتقيّد بالمؤمنين فقط. ويقول الله "اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون" فالفهم أنه يجب على الحكّام أن يحكموا بين الناس بكتاب الله بدون أجر، وهذا أدنى لتصديق الناس الذين لا يؤمنون، وليست هذه وسيلة لجلب الناس أو الدعاية، معاذ الله، وإنما لتبيين أن هذا من الله جاء بلا ثمن دفعناه للملكوت، فلا نأخذ ثمناً على ما لم ينفع فيه مالاً. فيجب أن يكون عمل الحكّام من باب التطوع، والأجر على الله. تقول، من أين يعيش العاملين في المكتب. أقول، ليكون لهم عملهم الخاص الذي يعتاشوا منه، ويكون حضورهم في المكتب، أو المجلس الذي يحكمون فيه في الأوقات التي يدرسون فيها القرآن ويجتمعون للذكر والفكر، وفي الأوقات التي يرون أنها تناسبهم. أما في الدولة القائمة على الحكم بكتاب الله فإنه يجوز للقاضي أخذ الأجر لأنه سيكون متفرغاً تمام التفرغ لعمله هذا، وسيكون له أعمالاً أخرى من أعمال القضاة التي تمنعه من التفرغ للعمل للمعاش، وهذه القاعدة العامة، أما تفاصيلها فليس هذا مقام شرحها.

يقول "رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً". مع أن المنافقين صدّوا عن كتاب الله والرسول، ولكن الآية تقول "يصدّون عنك" وليس "عنكما"، فالفهم أن الرسول هو القرآن الناطق، وإلا فليس برسول ولا عالِم.

مع أنه قال في الآية الأولى أن الذين يريدون أن يتحاكموا كفّار، لإيمانهم بالطاغوت، فهنا قال "المنافقين". فإذاً إذا قال المؤمنين للناس تعالوا إلى حكم الله، حكم القرآن، فالآية تنبئ أنه سيظهر من يعارض ذلك، وسيكون في الظاهر من المؤمنين بالقرآن، فكيف سيتجرأ هذا الرجل أن يقول للناس وهو يعد في المؤمنين بالقرآن أن لا تذهبوا إلى هذا الذي يحكم بالقرآن، الجواب، أنه من الذين يزعمون أن ثمة كتب أخرى غير القرآن تبين حكم الله الذي نزل على النبي محمد عليه السلام، ولذلك قال عنهم أنهم سيقولون "إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً"، يوفقون بين ماذا وماذا، بين القرآن والكتب التي عندهم والأحكام التي يؤمنون بها، ففي الدولة قائمة على الحكم بكتاب الله يعرف الناس الأحزاب ومقولاتهم، أما في الدول الأخرى فإن الأحزاب ستظهر الصدّ عن العالم والمؤمنين، وتنبئ الآية أن مصيبة ما ستقع ستجعل هؤلاء يرجعون إلى حكم الله. فما هي هذه المصيبة، بحسب حال الحزب الذي يصد عن حكم الله ودعوته، فقوله "بما قدّمت أيديهم" يشير إلى ذلك، لأن الجزاء من جنس المعصية، فلعلهم يحكمون بحكم يجعل الناس تثور عليهم لسفالته وسخافته، أو ما شابه، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

في هذه الحالة. على العالم أن يقوم بأحد ثلاثة أمور، الإعراض أو العظة أو القول البليغ. وهذا الترتيب يبين أنه بحسب حالة الصادّ عن الله يجب على العالم والمؤمنين أن يعاملوه. فالذي يعاند ولا يريد أن يسمع حتى لما يقوله العالم، يقول الله عن هؤلاء "فأعرض عنهم" لأن من لا يريد لا نُكرهه على ما نريد "أنلزمكموها وأنتم لها كارهون"، ومن لا يريد أن يسمع ولكنه يريد أن يقرأ، كالذين يقرأون الكتب ولا يصلون أو لا يريدون أن يسمعوا للعالم نفسه، يقول الله عن هؤلاء "وعظهم" لأنها الوسيلة الثانية في الدعوة إلى الله، وعن الذين يأتون إلى العالم ويريدون أن يسمعوا منه يقول "قل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً".

ما هو معنى "وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً"، ذكره كلمة "أنفسهم" يشير إلى أنه على العالِم أن يبين لهؤلاء حقيقة أنفسهم، وكيف أنها كانت في الملكوت ثم أرسلها الله لإقامة حكم الملكوت في الآفاق، وكيف أنه عليها في هذه الحيوة أن ترقى إلى الكمال النفسي، وشرح ذلك، ويذكر لهم أن الأنفس إلى أين مآلها، فعليه أن يريهم أيضاً أن أنفسهم هي غاية الخلق كله، وأن النفس المتعالية هي عين أنفسهم ومرآة قلوبهم خلقها الحق لتجلّى فيها ويرى نفسه وأسرار ذلك. فيبلغ معهم إلى من الهوية المتعالية إلى عالم الأنفس، وهذا أبلغ قوله، إذ لو عرفوا ذلك لما ذهبوا إلى غير حكم الله.

وفوق كل ذي علم عليم.

.....—.....

" وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله. ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جآءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً * "

”وأتبع السيئة الحسنة تمحها“ ولذلك بعد أن ذكر سيئة الذين يتحاكمون إلى غير الله بيّن هنا الحسنة التي إن أخذوا بها محت سيئاتهم وعادوا إلى السلام.

نذكر ثلاث مسائل مهمة في هذه الآية المباركة، وهي ”من هو الرسول“، و ”ما معنى الاستغفار المقبول“، وَ ”ما الفرق بين التسليم للإسلام واتباع الأنعام للحكام“.

أما الأولى ”من هو الرسول“ فنقول: إن هذه الآية وسوء فهمها هو سبب عبادة الناس للقبور وتعلّقهم بالموتى، فهؤلاء قالوا ”الرسول هو محمد بن عبد الله حصراً“ فيكون معنى ذلك أن هذه الاية تحثّ الناس إذا استمالهم الهوى وارتكبوا الخطأ أن يذهبوا إلى الرسول محمد عليه السلام ليستغفر لهم، ولكن أين هو الآن، هو بحسب جسمه في المدينة المنورة، في القبر، ولكن كيف نكلّمه وهو في القبر، يجب إذا أن يكون حيّاً يسمعنا، وبما أنه حي ويسمعنا فإنه أيضاً يستطيع أن يستغفر لنا، إذا نعكف على القبر كلما أردنا واضطررنا إلى ذلك. وبالطبع بعد أن يقيل هذا في الرسول محمد عليه السلام جرّ بعضهم أن يقولوا مثل ذلك في الأولياء من هذه الأمة، وجعلوا الرابط رابط الوراثة الروحية لمقام ما وما شابه، فنتج عن ذلك إنشاء المقابر المتنوعة والمقامات العالية في كل مكان، ثم جنح بآخرين المنطق وقالوا، أن الرسول محمد عليه السلام رحمة الله لقوله ”وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين“، وقال أيضاً ”ورحمتي وسعت كل شئ“، فإذا النتيجة ليست فقط أن الرسول محمد عليه السلام حي، بل أيضاً هو الجسم الكلي للعوالم وما شابه، وهكذا تسلسلت الاستنباطات، ولم تعدم هذه الأمة من يضع لها أحاديث لتؤيد ما تذهب إليه، فمثلاً قد يقول من له ذرة فكر، كيف نذهب إلى محمد عليه السلام في قبره وقد أكل التراب جسمه كما يثبت العيان في كل الأجسام وكما يثبت قبل ذلك القرآن، فقيل له، إن الحديث عن الرسول يقول أن الأرض لا تأكل أجسام الأنبياء، وإذا قال من له ذرة فكر، وكيف يكون حيا في هذا القبر الموحش، هذا أشد من العذاب، إذ تصوّر أن يحبسك أحد في حفرة في الأرض لمدة ١٤ قرناً، قيل له، إن الحديث عن الرسول يقول إن كل من يسلّم عليه سيصله الرد من الرسول لأن الرب سيرد روح النبي إليه في قبره، فيأتي هنا من له حظ من العقل ويتمنطق ويقول، بما أن الإسلام انتشر في العالم كله، ويوجد من يسلمون على النبي في كل لحظة في كل يوم، إذا روح النبي حاضرة دائماً في جسمه الذي هو في القبر وإذا ليس للنبي شغل في القبر إلا أن يقول ”السلام عليك يا فلان، السلام عليك يا فلان“، وإذا جوبهوا بسفاهة هذا القول، قالوا إن الإيمان بالغيب أساس الدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

كل هذا نتج لأن التفكير الذي لا ينبني على القرآن ويلج الملكوت ويعرف الحقيقة المجردة للأمور، يجعل الناس لا ترى إلا ببعد واحد، وسطح واحد، وهذا ما لا يقرّه عاقل ولا من له حظ من القرآن بروح الله.

إن كلمة ”رسول“ أو ”نبي“، وحتى أسماء الأنبياء وأحوالهم هي أشبه ما تكون بالرتب العسكرية في الجيش، فيوجد العقيد والملازم والجندي وهكذا، فإذا أمر الملك أن يطيع الجنود العقيد، وأن يكون العقيد هو المرجع في الخلافات التي تدور بين الجنود، فهل معنى ذلك أن العقيد فلان هو

الوحيد المقصود، لاشك أن هذا لا يصح، لأن فلان من حيث جسمه وعقله وقلبه هو ككل الناس، وإنما الذي رفعه هو رتبته العسكرية، فكل من تحقق بما تعنيه كلمة عقيد فإن أمر الملك للجنود بطاعته وتحكيمه تمّ فيه، فالمقصود هو الصفة، ليس الذات وإنما الصفة، لأنه من حيث الذات الكل من تراب وإلى تراب.

وجاَء فريق آخر، أيضاً لاحظ له من التوفيق لسطحيته، فرأى سوء ما تنتجه المقولة الأولى، فقال، إن الرسول هنا بمعنى السنّة، أي الأحاديث التي تروى عن الرسول، فكما ترى أنهم جنحوا إلى التأويل الباطني، ولو كانوا لا يقرّونه من حيث الأصل لأسباب ليس هنا محل ذكرها كلها، فالمهم أنهم جنحوا إلى التأويل، فهل يوافق القرآن تأويلهم أم لا، فهذا ما سيظهر لاحقاً إن شاء الله، أو لعله ظهر من قبل لمن تدبر الكلم، فإذن يصبح المعنى بحسب هؤلاء المحدثين، ولا ننسى أن نذكر القارئ العزيز أن الأحاديث التي هي تأويل كلمة الرسول هنا وفي غير هذا الموضع ليست إلا الأحاديث التي يتفق عليها أصحاب المذهب، فالفريق الذي يؤمن بأحاديث الرسول المروية عن زيد يرى أن هذه الكتب هي التأويل، أما الذي يرى أن زيد فاسقاً مجرماً مبتدعاً، وهو يؤمن بأحاديث عمرو، فإن كتاب عمرو ومسنده هو تأويل الرسول، والاحتكام إلى الرسول أصبح الاحتكام إلى مسند عمرو، من عمرو هذا ومن نصّبه للرواية ومن أين لنا أن نترك كتاب العزيز الجبار لكتاب خطّه بشر ثم قال أن هذا من عند الله لأنه يروي حديث رسول الله، أدع جواب هذا لعمرو وأشياعه، فالمهم أن المعنى أصبح لفرقة زيد مثلاً هو هكذا، "وما أرسلنا من رسول، الذي هو كتاب زيد، إلا ليطاع بإذن الله، لأن زيد هذا ثقة يروي عن ثقات إلى الرسول الذي أذن له الله بالتشريع، ولو أنهم، أي المؤمنين بمحمد عليه السلام، إذ ظلموا أنفسهم جاءوك، هنا أتوقف عن الكتابة، فلا أعلم إن كانت شيعة زيد وعمرو يرون أن كتبهم تنطق حتى يسمعوا استغفار المؤمن ويستغفروا له الله"، أظن أن هذا يكفي لمن كان له نصف ذرة عقل وإيمان.

الرسول هو العالِم بكتاب الله الذي أذن له الله بأن يعلّم كتابه، والله حي لا يموت، ولكن أكثر الناس أموات لا يعلمون، وإن آية الأموات التعلّق بالأموات، "بل هم في شك من ذكري" فهل سينفعهم هذا الكلام يا رب "بل لمّا يذوقوا عذابِ" نعم، إذا تعذّبوا بالتعلّق بالأموات والأوهام سيبحثون وقتها عن الحي الحاضر الذي لا يموت ولا يغيب "يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده" والمشيئة تعود هنا على عباده فافهم واسعَ للمعالي.

وأما المسألة الثانية "ما معنى الاستغفار المقبول" فنقول، يقول الله "يأيها الذين ءآمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عن الله أن تقولوا ما لا تفعلون"، فكل مقولة يظنها الناس حركة لسان هي في الحقيقة عمل بالأركان، وإلا كانت سبباً في مقت الرحمن، فليس الاستغفار قول وإنما فعل، إنما القول ليذكّر بالفعل فقط، ويحث عليه، أما من يظن أن تحريك عضلة يرفع معصية فهو مغبون مغرور.

أضرب مثلاً يوضح ما هو واضح، تصوّر لو أن رجلاً قال "لا إله إلا الله. محمد رسول الله" ثم مرّ من أمام الكعبة وتفل عليها، وأمسك بالمصحف وألقا به في الشارع، ثم قال "لا إله إلا الله. محمد

رسول الله" هل هذا الكلام مقبول، أليس لغواً وكأنه لا شئ أصلاً، بل لعله أشد لأنه يستهزئ ولعله يرائي الناس، وتصوّر لو أن رجلاً أخرس يداوم على النظر في القرآن والعمل به، ويحترم مجالس ذكر الله ويوقّر أصحابها، أكان يضيره أنه لا يصرخ كالسفيه الأول، إذاً ليست العبرة للأقوال وإنما للأفعال، فصوت الفعل أعلى من صوت اللسان، وكفى الناس علماً أن يعرفوا هذا ويعملوا بمقتضاه.

فكل ذكر من الأذكار وكل مقولة إنما هي لتذكر الإنسان بعمل ما وأعمال معينة، لذلك سميت أذكار، لتذكّر، وكما حكم الله أن كل مقولة لا يعبّر صاحبها بعمل هي مجلبة للمقت والعياذ بالله.

والاستغفار هو ستر الذنب، والذنب هو الظلمة، فستر الظلمة هل يكون بظلمة أم بنور، لا شك أنه بنور، والظلمة عبارة عن كل معصية وقبح وسوء ومرض، والنور عبارة عن كل كمال وشفاء، فحقيقة الاستغفار هي أن تجعل نوراً على الظلمة، وبحسب الظلمة التي ارتكبها المرء يعرف النور الذي يسترها، وبحسب الظلمة التي يمر بها المرء يكون النور الذي يكشفها، فالذي لا يعرف حكم الزنى مثلاً، فيرتكبه، يكون استغفاره بأن يتعلم حكم حرمة الزنى ويجتنبه، والمريض يكون استغفاره بأن يحاول أن يعرف سبب مرضه ويذهب إلى الطبيب ليعالجه، لذلك ترى أن أول ما يفعله المذنب هو عمل من عنده، ثم يتبع ذلك عمل من الذي سيستغفر له أي سيرفع عنه الظلمة المعينة فالذي يريد أن يتعلم حكم الله في مسألة هو بهذا يكون مستغفراً، والفقيه الذي يعلم الحكم يكون بهذا مستغفر له، والذي يريد أن يعرف سبب مرضه يكون بهذا مستغفراً، والطبيب الذي يصف له الدواء يكون بهذا مستغفر له، ولذلك قال "فاستغفروا الله" أولاً وهو عملهم ورغبتهم في العلاج، ثم "واستغفر لهم الرسول" الذي سيرفع هذه الظلمة عنهم لجهلهم بطرق العلاج.

وبما أنه ذكر في المقطع السابق أن هذه الفئة ابتغت غير حكم الله، حكم الطاغوت، فبذلك أمسوا في ظلمة، ولما عرفوا أنهم ظالمين لأنفسهم، لو عرفوا ذلك وأرادوا غير ذلك، جآء في هذه الآية يبين لهم السبيل إلى رفع هذه الظلمة.

وغفران الله هو إعطائه النور لمن يريده، فمن يريد أن يتوب يتوب الله عليه، ثم ختم باسم الرحيم ليدلّ على أن الأمر هو في عالم الأنفس، وهذا ظاهر لقوله "إذ ظلموا أنفسهم" وتعلم أن اسم الرحيم يعبّر عن عالم الأنفس من بين العوالم الأربعة.

أما الثالثة فهي قوله "ويسلموا تسليما" فنسأل "ما الفرق بين الذين يتبعون أحكام الله، وبين من يساقون إلى أحكام على عمى كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. أليس الله يصف دعوة النبي والقرآن بقوله "على بصيرة أنا ومن اتبعني" فإن كانوا سيسلموا تسليما فماذا بقي من البصيرة"، فنقول، يقول الله "إن الله وملائكته يصلون على النبي، يأيها الذين ءامنوا صلّوا عليه وسلموا تسليما"، فقبل التسليم لما يحكم به النبي، الذي يحكم، ولا يحكم، إلا بالقرآن، "أن احكم بينهم بما أنزل الله"، يوجد الصلوة على النبي، فيجب أن نفهم معنى الصلاة على النبي حتى نفهم كيف ينتج عن ذلك صحة التسليم لما جآء به عن الله.

ما معنى الصلاة على أحد، أيا كان، يقول الله "هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور" فالصلاة على أحد سبب، سبب ينتج أثر هو "ليخرجكم من الظلمات إلى النور"، كإشراق الشمس سبب، سبب أثره هو إنارة الأرض، فأي سبب يحوّل الشئ من الظلمة إلى النور هو في حيقته يدخل تحت الصلاة على أحد.

فما معنى أن يصلي المؤمن على النبي، وهل المؤمن سيخرج النبي من الظلمات إلى النور بصلاته، نعم، ولكن معنى الظلمات هو الأمر الغير معروف، والنور ظهوره وعرفانه، لذلك أمرنا الله أن نتفكر في نبوة النبي وصدق القرآن حتى نعلم أن ما بصاحبنا من جِنّة، وأنه نذير يعلمنا الخير الذي يقينا الشر، فبعد النظر في براهين صدق القرآن الذي يبلّغه النبي، الذي هو الصلاة على النبي، عندها فقط يستطيع المؤمن أن يقوم بالأحكام مخلصاً.

فالنبوة برهان الرسالة، والنبوة هي قصص القرءآن وأمثاله وفيضان أنواره، والرسالة هي الأحكام التي ذكرها كتاب الله والأخلاق التي حث عليها، وطريق معرفة النبوة، أو من الطرق، هو التفكّر في العلم الذي تنتجه، فالتفكر في القرآن هو أحسن صلاة على النبي، ثم لمّا يعرف أن هذا هو الحق من الملكوت، عندها عليه أن يسلّم للأحكام لأن كلا الأمرين من عند الله.

لذلك قال الله له "بلغ ما أنزل إليك من ربك. وإن لم تفعل فما بلغت رسالته"، "ما أنزل إليك" هو القرآن، هل يكون المعنى "بلغ القران فإن لم تفعل فإنك لم تبلغ القرآن" هذا لأصحاب العين السطحية، فالمعنى أن النبي كان يتخرج أحياناً أن يتلو القرآن لأن الناس كانت تظن أنه كالشعر أو سجع الكهّان، وكان يضيق صدره بما يقولون له، وكانوا يقولون عن قصص القرآن، بحر العلم الأكبر، "أساطير الأولين" لما لم يفهموا حقيقتها، فلذلك قال له "بلغ ما أنزل إليك من ربك" القرآن "وإن لم تفعل فما بلغت رسالته" إذ أي إنسان مفكّر قد يصدر للناس أخلاق وتشريعات، وليس فيها ما يدل على أنه من الله بطريق أولى من غيره، إذ الكل يفكّر وله الحق في ذلك، ولذلك كان القرآن برهان لصحة الأحكام، أحكام الإسلام، والحمد لله وحده.

فظهر أنه لا يصح تسليم من لم يتدبر في القرآن ويؤمن به أنه من عند الله، وأنه نزل من الملكوت، وإلا أصبح هو ومن يتسمّون السادة والكبراء والأحبار والرهبان سواء بسواء، وليس عند الله تفاضل في الأسماء والمباني إذا اتفقت الأهواء والمعاني.

وتريد على ذلك بفضل الله ونقول، إن الله خلق الخلق ليصلوا إلى غاية هي الكمال، وكان الله غالب على أمره، وهو لا يريد غير أن يسعد عباده، وسيسعدهم شاؤوا أم أبوا، سبحانك ما أعظمك وما أشقانا ببعدنا عنك، ولما حدّد هذه الغاية المقدسة، وأراد الكل أن يصل إليها، جعل إلى ذلك طريقين لا ثالث لهما، أن يسوقهم بسوط العذاب، أو أن يهديهم بأمر الكتاب، وسوط العذاب هو التجربة والخطأ والألم والاعتبار ثم إما تكرار الخطأ والعودة من البداية، وإما ترك الخطأ إلى الصواب، وبهذا يكون اهتدى إلى الصواب والسعادة في هذه المسألة المعينة من خلال التجربة

المضنية المعينة، والطريق الأرحم الذي من أجله بعث الرسل لا غير "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" هو أن يبين لهم الصواب في كتابه، وغالباً سيكون بعيداً عن نظرهم لماذا هذا هو الصواب ولماذا هذا الحكم والخلق هو الأقوم، لعل هناك أحسن منه، فيرجعون ويرتدون إلى طريق العذاب والتجربة.

ولما كان الله يريد أن يرحم عباده المؤمنين، أمرهم بالتسليم التام، أي أن يسلموا بأن الحكم الذي ذكره هو الأحسن وإن لم يتبين لهم أوجه التفضيل، وسوء حال وقال البديل، ومع ذلك من فيض رحمته وعد المؤمن الذي يسلّم لحكم من أحكامه أنه سيريه وجه التفضيل، بل لا يزال يريه في حسن ما اتبعه حتى يقول "الحمد لله الذي هدانا لهذا" ويزيده حتى يقول بعد أن يرى سوء الحال أصحاب التجربة "الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين" ولذلك قال "فإذا قرأناه فاتبع قرآنه" انظر إلى الاتباع أولاً، "ثم إن علينا بيانه" و"ثم" تدل على أنه بعد مدة من الزمن، يتمحص فيها المخلص من المرائي، والصابر من الجافي. ثم يحكم الله آياته، وكفر الله المؤمنين القتال.

فالتسليم من رحمة العزيز الحكيم مشرّع الدين، ولا يصح ممن لهم يفهم من القرآن الكريم.

من قوله "ليطاع بإذن الله" يدل على أن سبب طاعة الرسول هو ليس نفسه وإنما الوحي الذي جاَء به من عند الله، فالطاعة لله، بل إن النبي لو جاء وقال للناس أطيعوني كان بذلك مشركاً، أيأمرنا بالكفر بعد إذ نحن مسلمون، وإنما يلبس الناس الحق بالباطل، ويستهوون بذلك الغافل، لما يكتبون كتباً ويقولون هذه من عند رسول الله ويجب طاعتها لأن الله يأمر بطاعة الله، ولو كان ما تحويه هذه الكتب استنباط ظاهر من القرآن لكان لا بأس لأنه ذكر محل الشاهد الذي استشهد به على استنباطه حكمه، فيتبين كتب الحديث من صدقه، ولا يهمنا وقتها أن قاله قارون عن هامان عن فرعون عن إبليس، أو كان يوسف عن يعقوب عن إسحاق عن إبراهيم، وإنما يهمّنا ما قيل ولماذا، وكل ما وراء ذلك جاهلية إن عُبِد وترك كتاب الله، ولا يكون أهل الجاهلية إلا من قيل فيهم "يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرءآن مهجوراً" ولا يخفى عليك أن الآيات التي قبل هذا تقول "يوم يعض الظالم على يديه" التي كتب بها الكتب وقال هي من عند الله "يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاَءني." وهل يوجد بيت ليس فيه مصاحف، وكم بيت فيه من يفهم "بسم الله الرحمن الرحيم" "وكان الشيطان للإنسان خذولاً" ثم قال "يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً" فيتنبأ القرآن عن أن أقواماً سيكتبون مع كتاب الله، كما فعل الذين من قبلهم، اتبعوا سنّة الأولين، وبهذا الذي سيكتبونه سيضلوا الناس عن كتاب اله، وليس بعد ما ذكرت بيان، وإني لا أهدي العميان.

ومن قوله "فيما شجر بينهم" يدل على أنه حتى في محضر رسول الله لا يعني ذلك أن الناس تحوّلوا إلى مخلوقات أسطورية لا تختلف ولا تتنازع، بل إن عدم التشاجر دليل على موت الناس، وهل سمعت شجاراً في مقبرة، فبما أن الناس يسعون دائماً في الترقي في العلم والعمل، وكان الجدول طريق الترقي في العلم، وكانت المنافسة هي طريق تحسين العمل كان لابد من وقوع نزاع

واختلاف بين الناس في مجتمع حي عاقل، ولكن الفرق الوحيد هو أنه في هذا المجتمع يتحاكم الناس إلى العقل المقدس، لا إلى العضل والمسدس، وبهذا يفصل في الخلافات بالعدل، وتستمر حركة الحياة حتى يصل الناس إلى غاية الخلق والسعادة. وهذا محض النعمة.

ومن قوله "يحكموك" نسب اختيار الحكم والتحكيم إلى الناس، ولم يقل أن الناس سيجبرون على التحاكم إلى القضاء جبراً، وهذه قمة العقل المقدس في الهداية إلى الكمال، فالعقلاء يعرفون أنهم لو لم يتحاكموا لحكم الله سيقعوا في الاختلاف الجالب للألم والهدم، وهم يريدون أن يبلغوا إلى الغاية من الخلق، ولا يكون ذلك إلا بالبناء، ولذلك يختار العقلاء التحاكم إلى الله بمحض إرادتهم، ويكون هذا في العصر المسيحي، فانظر إلى هذه العظمة في الخلق، يختار الخصوم التحكيم بدل القتال والمكر والخدا ع والقوة، وأيضاً يخترون أحسن الحكّام، العالم بكتاب الله الذي يخبرهم بحكم الله، فقد اختاروا الله حكماً، ولذلك وبذلك تصير من العظماء، إذا اخترت العقل بدل الجسم، واخترت الله بدل الجاهلية، عندها وفقط عندها سيعرف الناس حقيقة وعد الله. "لنحيينهم حيوة طيبة".

فالإيمان اختيار العقل وحكم الله، وهذا حزب الله، وضدّه اختيار الفرعنة، ولذلك قال "لا يؤمنون" إذ لا يوجد حتى وسط بين غرفة فيها نور وغرفة مظلمة، أتجد حداً بين هذين، كذلك إما أن يكون المرء من حزب الله أو حزب الشيطان، وحزب الله هم المنصورون في الدنيا والآخرة.

وكم من رجل يعرف الحق والخير في أمر ما، ويقر أن هذا هو الأحسن، ولكن مع ذلك لا يقوم به، ولهذا قال الله "ويسلموا تسليماً" أن يسلموا قيادهم لما أثبته عقلهم من الأحكام الحسنة، ألا ترى أن الرجل يثني على الأمانة ويتأخر عن عمله ويقصّر في شغله، ويثني على الجمال وتراه سيئاً في منظره لا يبالي بصحته وهيئته، هؤلاء عرفوا الخير ونطقوا به ولكنهم لم يسلموا له، وهنا يأمر الله المؤمن بأن يسلم له كامل التسليم حتى ينجوا من طريق التجربة الأليم إلى النعيم.

وثمة سؤال مهم يطرأ وهو "إن المجرّب الخبير خير من غيره، وإن العلم اليوم مبني على التجربة والخطأ، فلماذا تعيب هذه الطريقة بشدة وهي سبيل العلم"، أقول أيها العزيز، إن الدين هو الروحانية والسياسة، وليس غير ذلك، والخطأ في الأخلاق قد يودي بصاحبه إلى المهانة ما دام حياً، أو إلى السجن بحكم مؤبد، فليس في ذلك مجال للتجربة والخطأ إلا لمن أراد أن يكون عبرة للناس يتعظون به، وإن السياسة تؤدي إلى الفرعنة والطغيان والحروب وفرض الفقر ونشر الجهل من أجل إقرار سياسة ما، أو ما شابه ذلك من صنع أسلحة تودي بالعالم كله، فليس في ذلك مجال للتجربة. وهذان مثلان بسيطان على ما نذكر، والناس هم الناس، قبل ألف عام وبعد ألف عام من حيث الأساس، أفكارهم واحدة وطموحاتهم واحدة ولكن ثوب الفكرة يختلف من عصر إلى عصر، فلا بعد ألف عام سيصبح أكل مال اليتيم حسناً، ولا قبل ألف عام كان طغيان الحكام مستساغاً، فالدين إما أن يؤخذ به كما نزل، وإما هو طريق العذاب والألم، فافهم. أما التجارب ما شابه فليست مما نتحدّث عنه أصلاً.

وفوق كل ذي علم عليم.

.....—.....

" ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم. ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً * وإذاً لأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً * ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً * "

ذكرت الآية التي قبلها الاحتكام إلى العالِم بحكم الله، حكم الملكوت، وهذه الآيات تبين الطريق إلى نيل أعلى درجات العلم من الله، فتبين الطريق من الجاهلية النفسية إلى الإسلام بالملكوت والنفس المتعالية، ثم بينت محطة الوصول وما سيفيضه الملك العظيم على الوافدين عليه من مكارم وعطايا، ثم بينت مقام أمثال هؤلاء الوافدين ودرجات الترقي وسلّم الصعود، ثم بينت كيف أنه بالاجتهاد تصل ولكن الاجتهاد نفسه ففضل من الله، فالحمد لله في الأولى والآخرة.

يقول الله الذين يحسدون الذين آتاهم الله من الكتاب والحكم والإمامة الروحية، "ولو أنا كتبنا عليهم"، فيقول، إن هؤلاء لم ينالوا هذه الدرجة بالكلام واللغو وحفظ الكتب وترديد المتون، ولم ينالوا هذه الدرجة بالزعم أنهم أتباع فلان أو حفظة شريعة فلان ومذهبه، فإن كنتم قد فعلتم ما فعلوا إذاً لآتيناكم ما آتيناهم، ولكن لو علمتم ما يجب أن تمرّوا فيه لأعرض أكثركم لصعوبته وطول طريقه وكثرة منازله. ولن يفعل هذا إلا القلة، فإن ظهرت هذه القلة فبدل أن تنتفعوا بهم وتشكروا الله إذ أغناكم عن السفر الشاق المضني، بدل ذلك تحسدونهم وتكيدون لهم، أي منطق هذا تتبعون، أتأمرهم أحلامهم أم هم قوم طاغون.

وإن الله إذا أراد أن يهيء عبداً من عباده ليفيض عليه من علمه ويلقي إليه من روحه، فإنه يهيء له من الظروف والأسباب التي تجعله يسير في هذا الطريق الشاق، أكاد أقول غصباً عنه، لأن قول "كتبنا عليهم" يدل على أنهم وصفوا في ظروف اجتماعية ونفسية تحبب إليهم أن يرقوا إلى الملكوت بل ما فوقه، فعندما قالوا لنبي لهم "ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله" قال لهم نبيهم "هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا" فردّوا "وما لنا لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبناءنا" وهذا لأن الله حكم للمؤمنين أن لا يقاتلوا أحداً إلا في ثلاث حالات، الدفاع عن النفس، وضد الذين يجبرون الناس على دين ما، وضد الذين يخرجون الناس من ديارهم ويعتدون على أملاكهم، ففي هذه الحالة، وإذا توفر الظرف المعين، كان الله بذلك، أي بتحقق ذلك الظرف الاجتماعي يكون قد كتب عليهم القتال، وكما ترى أن الظرف خارج عن إرادة المكتوب عليهم، بل لعلهم كارهون له، كذلك في حال إن أراد الله أن يهيء عبده لفيض الملكوت يجعله في ظروف وحالات نفسية تحبب إليه ولو على كره القتال النفسي والكلي ضد كل الظلمات حتى يصل إلى الحق.

والطريق إما بقتل النفس وإما بالسفر إلى من قتل نفسه، وقتل النفس هو الموت قبل الموت، الموت الإرادي وهو ظاهر لأهله، ولكن نفصل قليلاً، فنقول، الإنسان جسم وقلب وعقل، الجسم له حركات وشهوات والعقل له أفكار وآمال وأمنيات، والقلب كالمرآة، وبحسب ما يعمله الجسم ويفكّر في العقل ينعكس عليه وينطبع عليه، فإما أن ينكسر أو يصدأ ويملأ الغبار وجهه حتى لا يصبح يرى من يقف أمامه كالمرآة التي عليها غبرة، أيتجلى فيها النبي لو وقف أمامها، فهل ذلك لغموض النبي أم بسبب الغبرة، والقلب أيضاً حتى تصبح مرآته أوضح وأحسن فإن ذلك محكوم بما يحب القلب، والذي يحبّه يظهر بما يذكره.

والموت هو الانتقال من حال إلى حال، أو من مكان إلى مكان وهو الأصل، إذ ألا ترى أن الرجل إذا مات فإنه في الحقيقة يبعث في العالم الآخر فوراً، لذلك لما يموت الفاجر يقول رأساً "رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت". أو كالجنين يكون في عالم الرحم، فإذا مات بالنسبة لمن هم في الرحم فإنه يولد و(يحيى) بالنسبة لمن هم في العالم الآخر، عالم الدنيا، فمن مات في مكان عاش في آخر، فالموت الانتقال من مكان إلى مكان، وفي التأويل المكان هو المكانة، كأن نقول إن هذا من أهل المزابل، أي من أهل الدنيا والجهل لاشتراك المزبلة والدنيا في اجتماع الخبائث وما لا فائدة منه والرائحة الكريهة، ولذلك كان الموت الانتقال من حال إلى حال أو مكانة إلى مكانة، أو مقام إلى مقام، مات بالنسبة للأول وعاش وبعث بالنسبة للثاني.

حركات الجسم يكون قتلها بالسكون، والمداومة على السكون والهدوء، ولذلك كان التأمل دائماً حركة شديد البطيء حتى يتدرج إلى السكون التام الذي يجعل الحمامة تقف على المتأمل لأن راسخ كالجبل، والشهوات يكون قتلها بالجوع والعطش وعدم النظر إلى كل ما قد يثيرها من أموال وسيارات وبيوت وأصدقاء ونساء، أي الصوم وغض البصر بل التعامي الإرادي، حتى يتدرج الإنسان إلى أن يستوي عنده الأكل والجوع ما دام صحيحاً يتنفس فلا يأكل بعد ذلك إلا بنية الصحة الجسمانية من حيث الأصل، فقتل الجسم يكون بالصلاة والصوم وغض البصر والرضا بالكفاف وبذلك يخرج من حالته الأولى وهي دوام الحركة ودوام تحرك الشهوة عند أي عارض إلى السكينة واختيار الحركة المناسبة في وقتها واختيار الشهوة بعقل وحكمة وبساطة، وهذا أسهل مراتب قتل النفس.

وهنا تبدأ الصعوبة في قتل النفس وهي قتل العقل، فالعقل أفكار وآمال وأمنيات، والأفكار ما يتعلّق بالمسائل وحلّها والتفكير في الماضي وأحداثه، والتفكير في المستقبل ومن هذا التفكير والتخيل تنشأ الآمال والأمنيات، الآمال ما اقترن بأعمال، كالذي يأمل أن يصبح غنياً ثرياً فيعمل ويخطط وما شابه، والأمنيات ما لم يقترن بأعمال، بل مجرد خيالات يتسلى بها المتمني، وغالباً لا يكون في استطاعته أن يفعل شيئاً بشأنها (أصلاً) فهي خارج نطاق إرادته، كالذي يحدّد من سيدخل الجنة والنار "تلك أمانيهم"، فكما أن للجسم حركات وشهوات، فحركات العقل هي التفكير، وشهوات العقل هي التخيل والتعلق بما تخيّل من أمور الدنيا والآخرة، فقتل التفكير ليس له إلا طريقة واحدة، وهي في كلمة واحدة، لا تفكّر.

لماذا لا تفكّر، أضرب مثلاً، الكأس الممتلئ بالماء هل يستطيع أحد أن يملأه بماء جديد، لا يستطيع إلا إن أفرغ الكأس من الماء القديم حتى يملأه الساقي من الماء الجديد، كذلك التفكير والعقل، فإن العقل الذي يريد أن يملأه الله من نور الملكوت حتى يصبح من العلماء المتألهين، كيف يملأه الروح بعلمه إن كان هو أصلاً ممتلئ بذكريات وأمنيات وتفكير دائم يشبه صبّه للماء دائماً في كأسه، ولذلك يجب قتل العقل حتى يبعثه الله من جديد، ولذلك من قتل عقله وبعثه الله بخلق جديد ترى الناس الذين كانوا يعرفونه يقولون، إن هذا ليس فلاناً الذي كنّا نعرفه وكأنه رجل آخر، هذا من البعث الذي وعد الله به عباده المخلصين وكل من يريد من العالمين.

فإذا أصبح الجسم نظيفاً هادئاً، والعقل ساكناً، أصبح القلب لا يأتي عليه وسخ جديد، فلم يبق إلا غسل الغبار القديم وتحسين مرآته، والغسل أحسن ما يكون بالماء، وهو ذكر الله، لأنه قال "وجعلنا من الماء كل شئ حي" وكذلك لا تحيى النفوس إلا بذكر الحي الذي لا يموت، ولذلك أمرنا بغسل الوجه للطهارة وبكثرة ذكر الله على كل حال وفي كل وقت، ذكراً قلبياً محضاً، سيأتي الوقت الذي يصبح القلب فيه مرآة ثابتة صافية فتتجلّى فيه النفس المتعالية، فإذا تجلّت النفس المتعالية اندك جبل وجود العبد، وفني "فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً"، إذ لا يبقى مع حضرة القدس شيء، "كل شئ هالك إلا وجهه"، فإذا فنيت نفس العبد وهلكت في نار نفس القدس، أصبح لا يرى نفسه، بل لا يشعر حتى بها، وأُخذ إلى الواد المقدس الذي انطوى فيه كل شئ، بل طوي كل شئ ولم يبق إلا المتعالي وحده، فتصبح النفس في النفس، ولا يبقى إلا النفس، وعند ذلك يسمع الكلام، لأن الكلام عين الذات، ألا ترى أن الأخرس يتكلم في نفسه، وليس اللسان إلا ترجمان، ترجمان عما يدور في النفس من معاني الكلام، وهل يسمع ما في نفس إلا من كان متصلاً بهذه النفس، والاتصال لا يكون إلا بين ما يصح عنهما الانفصال، فإن كان لا انفصال فلا اتصال، "هو الأول والآخر والظاهر والباطن" فلذلك ليس إلى هذا المقام سبيل إلا الفناء، وهو ليس بمقام، لأن المقام يوهم التعدد ويوهم وجود الخلق، أما الفناء المحض فهو قبل الخلق وقبل كل شئ.

فقتل النفس هو الفناء في النفس، قتل النفس الإنسانية هو بالفناء في النفس الإلهية، وهذا نهاية الصعود، "إليه يصعد الكلم الطيب".

وبما أن العوالم أربعة، النفس الإلهية والملكوت والآفاق والأنفس، وهذا العبد هو الآن في النفس الإلهية، فيبدأ بالنزول المعنوي الحقيقي إلى الملكوت، ويتحق بكل ما فيه، ثم إلى الآفاق ويتحقق بكل ما فيه، ثم إلى الأنفس ويتحقق بكل ما فيه، ثم يُنشأ خلقاً آخر فتبارك الله رب العالمين.

وهو نفسه لا يعلم قدر ما أودع فيه من علم، كالبذرة فيها كل شئ حتى ألف ثمرة، ولكنها ترى نفسها بذرة فقط، بل لعلها لا ترى نفسها أصلاً، وهذا لأن العلم فيه بالقوة، وعندما يتأمل أو يعرض له سؤال، أو يتدبر في القرآن، وما شابه يخرج العلم منه ويفيض على من حوله بقوة الله وروحه.

ولذلك قال "قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب" كل علم الكتاب في هذا العبد المخلص، فيه بالقوة يخرج إلى الفعل عند الحاجة والرغبة.

الآن تفهم رحمة الله في أن يختار قلة من الناس لهذا السفر العظيم، أترى لو أنه فرض على كل إنسان يريد أن يحقق الغاية التي خلق من أجلها هذا السفر الشاق البعيد، كم من الناس سيحقق القدر الذي يريد الله أن يوصل إليه عباده، أقل القليل، وبما أن الهداية إما بسوط العذاب أو أمر الكتاب، والكل سيصل سيصل شاء أم أبى، وكانت الهداية بأمر الكتاب متوقفة على علم الإمام، إما المسافر كما ذكرت أو بالأخذ عن المسافر، إذ لا ثالث لذلك، فإذاً حسد الناس الذي سافر وأبوا أن يسافروا بأنفسهم، فإذاً لم يبقَ إلا أنهم سيبقون تحت سوط العذاب حتى يأتي الموت ثم سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، أفليس من عظمة رحمة الله أن يؤتي بعض من الناس العلم بالكتاب ثم على البقية التي يتعلموا منهم، وليس معنى ذلك أنهم سيكونون كالأنعام كما تعرف، بل سيتمتعون بالعلم كالعالم، إلا أنهم سيأخذوه على طبق من ذهب أما هو فبتكسير الحطب.

أضرب مثلاً يبين ذلك، رجل مشى ثلاثة أيام ليحضر إلى قريته الجائعة طعاماً من قرية مجاورة، فعانى وكابد وتعرض لمقاتلة السباع ووحوش الصحراء، وحر النهار وخوف الليل، وجروح الأقدام وعرق الجبين، وعانى ثم عانى، ثم عاد بالطعام إلى أهل قريته، ما رأيك إذا قال أهل القرية، لا، لن نأكل من الطعام الذي جئت به، ستظل تأكل التراب ونموت يوماً أما أنت فما فعلت ما فعلت وكابدت ما كابدت إلا لتكون ملكاً علينا، وتمن علينا بالطعام الذي جئت به إلينا، فقال الرجل المجاهد، خذوا الطعام مجاناً، لا أريد منكم أن تعبدوني ولا أن تشكروني، فقط خذوا الطعام وإلا سيفسد بعد حين، ولا أريد منكم مالاً عليه، لقد أعطاني إياه أهل القرية مجاناً لمّا علموا جوعكم وحاجتكم وسوء حالكم، فكما أخذته مجاناً ها هو بين أيديكم مجاناً، لا أريد غير أن نشبع ونحيا باطمئنان سوياً، لقد أكلت الحديد حتى أتيكم بهذا الطعام وأنتم الآن تأكلونه على طبق من ذهب، فما أسعدكم وما أشقاني، فقالوا له، لن نقبل طعامك حتى يسافر كل فرد من أهل القرية إلى حيث سافرت ويأتي بالطعام من حيث أتيت، فرد عليهم، إن شئتم أن تفعلوا ذلك فاذهبوا، ولكني أخبركم أن الطريق صعب عسير فمن أراد أن يسافر فبارك الله فيه ورعاه، ثم لما دخل إلى بيته قال أهل القرية بعضهم لبعض، من منكم يتحمّل هذا السفر العسير، إني أخشى أن أضيع في الصحراء. وقال الآخر إني أخشى أن تأكلني السباع، وقال ثالث فماذا إن وصلت ولم أجد هذه القرية أصلاً، وهكذا ما زالوا يتقاعسون، حتى الذين كانوا يريدون السفر اثّاقلوا إلى الأرض بسبب مقولات أصحابهم، وبعد مدّة من الزمن مات أهل القرية جوعاً، فخرج المجاهد والذين أكلوا معه وقال، كيف أسى عليكم وقد كفرتم بالنعمة وهي أمامكم، لقد نصحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين.

كل هذا شئ من قوله "ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم" فالناس إذاً ثلاثة، عالم رباني، ومتعلّم منه وَ هالك. فالربانيين رحمة الله للعالمين ليكفوهم السفر العظيم.

قوله "اخرجوا من دياركم" يشير إلى السفر إلى العالم الإلهي، كما سافر موسى إلى العبد الصالح ليتعلّم منه.

وقوله "ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به" أي إما أن يسافروا بأنفسهم فيؤتيهم الله الله "لكان خيراً لهم" وهي الحكمة "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً" وأيضاً "أشد تثبيتاً" إذ ليس العيان كظن العميان وإما أن يتعلموا من العالم الرباني فيكون خير لهم إذ يكفيهم المشقة ويعطيهم اللب رأساً بدون مشقة نزع القشور وقبل ذلك الزرع والعناية بالمحصول، و"أشد تثبيتا" إذ كل من لم يتعلم من الرباني لا يزال متزلزل في قلبه وعقله، لا يعرف، لا يفهم إلا قليلاً، وإن عرف فغالباً لا يحيى مع الله ولا يفقه قدر الخلق إلا شيئاً يسيراً.

ثم يبين ما سيهبه لمن يصل إليه وينزل من عنده "وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً. ولهديناهم صراطاً مستقيماً" أما الأجر العظيم فهو علم القرآن العظيم. العلم اللدني الذي ينصب في القلب رأساً من الملكوت "وعلمناه من لدنا علماً"، وأما الصراط المستقيم فهو المحرمات العشر وتفصيلها، "قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم" ثم يختمها بقوله "وأن هذا صراطي مستقيماً" وهذه المحرمات هي الشريعة كلها، وهي أساس عمارة الحيوة بحكم الله.

ثم يقول "ومن يطع الله والرسول" طاعة الله القرآن وطاعة الرسول العالم الرباني، لأنه يعبّر عن القرآن، ولذلك جاءت طاعة واحدة، إذ لا فرق بين ما يقوله القرآن وما يقوله الذي يأذن له الله بتعليم القرآن، ويظهر ذلك لمن له عينين، إذ كما أن عيني الجسم تجعلك ترى من المبصر من عالم الأجسام، كذلك المبصر بعين العقل يرى المبصر من عالم الملكوت، والطاعة هي الاختيار بكل حرية وإرادة، لا مجبور ولا مُكره، فإما عن حب وإلا فلا.

ولعل سائل يقول، "إن كان الله قد رتّب العذاب على مخالفة أمر الرسول، فكيف يقول طاعة واختيار، أليس قد أُكرهنا هنا على الطاعة خوف من العذاب وفرق منه" أقول أيها العزيز، إن العذاب هو سوط العذاب الذي ذكرناه عشرات المرات، وليس الذي تظن، فالهداية كما عرفت إما بأمر الكتاب وإما بسوط العذاب، فإن شئت أن تجرّب فافعل، ولكن لو جربت ووقع عليك أي ضرر أثناء التجربة فلا حجة لك على ربك، ولا تقول لماذا وكيف تفعل بي هكذا، قد جاء الرسول بأمر الكتاب، فاختر ما شئت، إذ أمامك ثلاث، إما أن تسلّم لأمر الكتاب وثم ربك سيعرفك ويبين لك من حكمته ما يجعلك ترضى، وإما أن تعتبر بأخطاء الآخرين فتكون من المعتبرين، وإما أن تجرّب بنفسك وتصبح عبرة للآخرين، فخذ ما بدا لك، "كل امرئ بما كسب رهين".

إن القرآن لم يقل "فأولئك من النبيين والصديقين" ولكن قال "مع النبيين"، فالفهم هو أن الذين يتعلمون من الرسول ستكون درجتهم كدرجة هؤلاء، كما ذكرنا في المثل السابق عن المسافر وأهل القرية، إذ ما الفرق بين المسافر والفقير إذا أكلوا من نفس الطعام، هل سيكون العسل أحلى في بطن المسافر من بطن الفقير، نعم سيسدد المسافر أكثر لأنه سبب العداوة لأهله، وكذلك سيسعد الأهل أكثر لأنهم استراحوا وفي نفس الوقت شبعوا، فكلٌ وعد الله الحسنى.

النبي هو الذي يُلقى في قلبه العلم من الروح القدس، والصديق كيوسف الذي يصدّق الحق والواقع تأويله وتعاليمه، والشاهد الذي يدعوا إلى الله وكتابه ويشهد أنه الحق بأن يكون سائراً على هدي الله في ليله ونهاره وبكلامه. والصالح هو الذي يريد أن يتعلم من الله فيهيء كأسه ليمتلئ بعلم الله فهو صالح لاستقبال النور وقبوله.

ومن قوله "أولئك مع" يدل على أن المخلص يختار أصحابه بعناية، إذ الخليل مرآة الخليل، فإن أردت أن تعرف الذي يخلص لله فانظر هل هو مع النبيين والصالحين أم مع من، "وحسن أولئك رفيقاً" إذ أن يكون لك صديق من المتألهين خير لك من أن يتمنّى معرفتك وصحبتك ألف من الشياطين.

"ذلك الفضل من الله" فضل التوفيق للسفر إليه، وفضل الرجوع من عنده إلى خلقه به، وفضل قيام العالم بالدعوة إلى حكمه وفتح خزائنه باسمه، وفضل التيسير على المؤمنين بالعالم الرباني، وفضل التوفيق للصحبة الخيرة مع الصديقين والمخلصين، والفضل الأكبر هبة القرآن الكريم.

"وكفى بالله عليماً" فالله اسم الملكوت، وقوله "كفى" إشارة إلى حقيقة أن النور كله في الملكوت ومنه ينزل ما ينزل ويشرق ما يشرق لا غير، إذ العوالم الأربعة ليس فيها إلا الملكوت للنور كله، إذ ليس في النفس المتعالية نور وظلمات، ولا خير ولا شر، ولا فوق ولا تحت، فلا تبدأ الزوجية إلا في المخلوقات، "ومن كل شئ خلقنا زوجين"، والنفس هي أصلاً من الملكوت، وعالم الآفاق هو عالم الظلمات التامة، وهو الذي أنزلنا إليه لنجلب نور الملكوت إليه، هذا هو سبب خلقنا ونزولنا، فافهم ذلك جيداً إذ هو أول وآخر ما يجب أن يعرفه كل من يتنفس من البشر، الملكوت محل النور التام، ونحن كنّا في الملكوت، والآفاق محل الظلمة التامة، فأنزلنا الروح إلى الآفاق لنغيره بالملكوت، وهذا معنى الحكم بالله، ولذلك قوله "وكفى بالله عليماً" يكون تذكيراً بهذه الحقيقة الكبرى فافهم ذلك جيداً وعلّمه كل من تلقى ممن يريد أن يسمع.

و"الله" رمز على القرآن، ولذلك قال في آية أخرى "أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم" فمن لم يكفه القرآن فلا يكفيه شئ، ومن لم يطهره البحر فلا طهور له فافهم.

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

" يأيها الذين ءامنوا خذو حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً * وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً * فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحيوة الدنيا بالآخرة ومن يُقاتل في سبيل الله فيُقتَل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * "

بين كل مقطع ومقطع في السورة، أي سورة، يوجد على الأقل اتصال باطني واتصال ظاهري، وفي هذا، الاتصال الروحي هو أنه بعد أن بيّن الطريق إلى أن يصبح الإنسان مَلِكاً بالملكوت، ويلبس تاج كتاب الله على رأسه فقد نال العلم، والآن دور الدعوة إلى هذا الملكوت بالعلم الذي أوتيه، ولذلك بدأ يفصّل أحكام القتال الذي هو الجدال حتى النهاية، إذ الدعوة إلى الله قد حصرها الحق في ثلاثة طرق، الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وهي الحجة البالغة التي تقطع رقبة الجسم الفكري الخبيث الذي يضل الناس عن حقيقتهم العظيمة. وأما الاتصال الظاهري فهو هذا، بعد أن بيّن الحاكم وبما يحكم، ودعا المؤمنين إليه، فإذا استجاب الناس، وقامت المملكة على كتاب الله، فإنه ولا يريب ستأتي دول أخرى لتحارب المملكة والدعوة التي تقوم بها، إذ المملكة القائمة على كتاب الله من أساساتها الدعوة إلى الملكوت، وهذا سبب الحرية و(الكلام) أي الملكية، والدولة التي لا تقوم على الله بل على عبادة الطاغوت لا سبيل لها لحكم شعبها إلا بإبقائهم جهلة أو نشر الرذيلة بينهم حتى تلهيهم عن حقيقتهم فيبقوا عبيداً لها وهم لا يشعرون، ولذلك بيّن أحكام القتال الجسماني كذلك، فالحمد لله "ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين".

السير إلى الله يشبه الذهاب إلى عرس، حيث العروس هو المتأله، تراها إذا بدأت تستعدّ للزفاف شديدة الحذر من أن تتسخ بأدنى شئ، حتى لو وقف جانبها حامل كأس ماء تراها تخشى أن ينصب عليها، وهكذا المتأله في حياته، يقول "يا أيها الذين ءآمنوا" أي بالحياة التي الله سببها وغايتها، الحياة التي يريد أهلها أن يأتوا بالملكوت إلى الأرض، "خذو حذركم" فعلى العاقل أن يتخيّر دائماً أعماله، أفعال وأقوال ومشاعر، فدقة النظر في الأمور النفسية والاجتماعية يؤدي إلى التعمق الذي يؤدي إلى دوام التحسن فليس العاقل برجل يستكين إلى عادة وإن اشتهرت إلى حد بعيد وعظيم، سواء عنده العادة وغيرها، كل شئ يجب النظر فيه، واختيار الأحسن الأكمل دائماً.

تبين الآيات المباركة أن ثمة عدو، وكأنه آت إلينا، بل لعله وصل إلى موقعه الذي سيحاربنا منه، ونحن الآن بتوجيه هذه الآيات نريد أن نذهب إليه ونواجهه، فتبدأ التعاليم المقدسة من أوّل حرف.

أول التعاليم قوله "يا أيها الذين ءآمنوا"، فلمّا بدأ بالنداء، نفهم أنه يجب على العالم، والذي علم ما هي مهمة الناس في الأرض، أن ينادي بها، في الكتب وفي المساجد والمعابد، وفي كل مكان يوجد فيه من يريد أن يسمع، النداء هو أول أمر، ثم قوله "الذين ءآمنوا" يدل على وجوب تعليم سبب نزولنا إلى الأرض من الملكوت، وتفصيل ذلك وضرب الأمثلة وتفسير الأمثلة القرآنية في ذلك، كقصة يوسف ويونس، إذ بذلك يؤمن الناس إن أرادوا الإيمان وسعوا إلى طلب المعرفة الربانية، إذ العلم سبب الإيمان ويأتي قبله دائماً، "قال الذين أوتوا العلم والإيمان" و "ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان"، فنادوا الناس حتى يعلموا أنه يوجد بينهم من يعلم، ثم إذا طلبوا وسئلوا العلم فعلموهم ما رمز له القرآن واضربوا لهم الأمثال واشرحوا الأمور ولا تبخلوا بشئ، أعطوا ثم أعطوا، حتى وإن لم يستجيبوا الآن فعلى الأقل سيكون في ذاكرتهم ما يسعفهم لو ضربهم سوط العذاب.

يجب أن نعرف ما معنى الحيوة الدنيا حتى يظهر معنى الآية، إذ هي الفلك الذي تدور حوله الآيات. يقول الله "اعلموا أنما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد" ثم يختتم بالحقيقة النفسية للحيوة الدنيا بعد أن (بين) الحقيقة الظاهرية، فيقول "وما الحيوة الدنيا إلا متاع الغرور" واللعب هو الذي لا حق فيه، ولا يوجد حق يبتغى من ورائه، فوجوده كعدمه من حيث قدر الخلق لقولهم "أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين"، والحق هو الملكوت "حتى يتبين لهم أنه الحق"، واللعب في حقيقته هو التسابق بين الناس إلى شيء لا يحتمل أن يكون الفائز إلا واحد والثاني لا محالة سيعتبر خاسراً، وهذا في يوسف "أرسله معنا غداً يرتع ويلعب" ثم زاد "إنا ذهبنا نستبق" ثم زاد التفصيل "فاستبقا الباب" ولذلك لو ترى كل الألعاب التي اخترعها الناس سترى أن لبّها هو هذا الذي وصفه الله، عندما يفوز فريق سيخسر الآخر، والخسارة عذاب، والدنيا محدودة، فمن يريد أن يكسب مالاً عليه أن يأخذ مالاً من أحد غيره، فهذا الغير يكون قد نقص ما عنده، ففي الحيوة الدنيا لتكسب يجب أن يخسر غيرك غالباً، وعندما يستسيغ المرء أن يكسب بخسارة غيره، أي يفرح بحزن غيره، ويعلوا بأن يدوس على غيره، تكون الأنانية قد بعثت إلى الحياة، والأنانية رب إبليس وأمّه.

أما الحياة الآخرة فهي عكس الحياة الدنيا تماماً، وكما أن أبرز مثال على الحياة الدنيا هو اللعب فأبرز مثال للحياة الآخرة هو التعلّم من الملكوت، المعلّم يعطي ولكنه يزيد ما عنده ويستفيد غيره، يعطي ولا ينقص ما عنده، بل يزيده الله، فهذه هي الحياة الآخرة، الكل يكسب، وأكثر الناس كسباً هو أكثرهم عطاءً، ولذلك قالوا "إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً"، فالحيوة الدنيا هي البخل والحياة الآخرة هي العطاء، فإذا أعطى كل واحد فضله إلى الناس، فمَن من الناس سيحتاج إلى شيء. إن كان لك أب واحد يعمل لينفق عليك، فما بالك لو صار لك ألف أب يعملون لينفقوا عليك، هذا معنى الأمة الواحدة.

قوله "خذوا حذركم" يشير إلى القرآن. لأنه باتباع أمر القرآن يبتعد الإنسان عن الشر وطريق الألم، لقوله "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" فالقرآن والعقل هو الحذر الذي يجب أن يؤخذ إلى أي مكان يدعوا فيه الإنسان المؤمن إلى الملكوت، أي يدعوا بأن يفهم الناس أنهم نزلوا إلى هنا لأنهم خلفاء الله ليقيموا بينهم حياة الملكوت على الأرض، فبين الأصحاب وبين الأسر وبين الدول، هذه دعوة المتألهين والعارفين، التذكير بالملكوت وكيفية الإتيان به إلى أرض الظلمات.

قوله "انفروا ثبات أو انفروا جميعاً" لما جعل "ثبات" في طرف و "جميعاً" في طرف، فإذاً معنى "ثبات" هو ليس جميعاً، أي طوائف، فالفهم هو أن المؤمنين ليسوا كلهم لون واحد، كلٌ منهم يعمل عملاً ما، ويتكاملون ببعضهم البعض، كالجسم الواحد، ماذا سيحلّ بالإنسان لو كان كلّه رأس، ليس له يد ولا رجل، ما فائدة العقل إن لم يكن ثمة يد تعمل ورجل تسعى، كذلك مجتمع المؤمنين العقلاء، يقسّمون الأعمال فيما بينهم، وإن عمل كلّ عاقل ما يجب أن يعمله من تلقاء نفسه فسيتكامل المجتمع الموحد، لذلك قال مثلاً "ولولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين"، ثم إذا رجعوا إلى قومهم علموهم مما تعلموا، وهكذا في كل الأمور التي على الإنسان أن يعرف

فيها شيئاً ما على الأقل، فليس على كل المجتمع أن يصبح طبيباً متخصصاً ولكن على الطبيب المتخصص أن يعلّم الناس أساسيات الصحة والوقاية ورؤوس المسائل ونتائجها المهمة من حيث العمل، أما كيف توصّل هو إلى هذه النتائج فليس بالأمر المهم لأكثر الناس، وعلى هذا الأساس يتكامل المجتمع.

وفي الحرب، وهو المثل المضروب هنا، يقول "انفروا ثبات" أي فرق وطوائف ثابتة متكاملة، تعلّم كل طائفة ما عليها تماماً، ولا تحيد عنه حتى لا تؤثر سلباً على كل الناس، "أو انفروا جميعاً" في الآيات من المسائل السياسية الحربية الشيء الكثير ولكن ليس المراد هنا استقصاء ذلك، وعلى العموم فإن الآية تبين من أساليب ادخال الرعب على العدو، فإن رأى طائفة واحدة قليلة تفائل وفرح لجهله، إذ يظن أن هذا هو الجيش بأكمله فلما يرى الطائفة الثانية جاَءت يبدأ يخاف ويتردد، ثم إذا ظهرت الثالثة بدأ يهتزّ ويتزلزل، وهكذا إذا رأى الجيش بأكمله غلبه الرعب وتضاربت قلوب الجنود.

والتأويل هو، عليك أن لا تكشف كل ما عندك دفعة واحدة، خاصة في الجدال مع الذين هم أشبه بسحرة فرعون، ولكن جهّز حججك من قبل، وابدأ في إظهارها شيئاً فشيئاً، وأيضاً إياك أن تغترّ بكثرة ما عندك وتستهين بما يظهر من الآخرين، إذ الحكم بالظاهر باطل، فالبواطن تخفي الكثير، بل لعله كل شيء مخفي ولا يظهر إلا شيء من الأثر، وأيضاً عوّد نفسك أن تحسب حساب الأسوأ في الأمور التي تخطط لها، فإن حصل الحسن كان بها، وإن حصل ما توقعت فأنت مستعد له من قبل فلا يدخلك خوف ولا رعب ولا تزلزل، بل تكون راسخاً كالجبل أمام كل ما قد يطرأ عليك، وهذا كلام مجرّد ينطبق على كل شيء بحسب حالك وعملك.

قوله "وإنّ منكم لمن ليبطئن"، لما جاَء بإنّ في أول الآية دلّ على ذلك على أن كل إنسان يريد أن يعمل عملاً لله ومن أعمال الملكوت دائماً سيوجد من يبطئه ويحاول أن يمنعه عن هذا العمل، إما مباشرة، بأن يوجّه له الكلام والعداء، وإما بأن يتخاذل هو، ويسمعه من المقولات المحيطة ما يسبب له التراخي وأخيراً ترك العمل والعياذ بالله، ولذلك جاَء هنا وهو ينبئك مسبقاً أنه سيأتيك وستجد حولك ولعله من أصحابك المقربين من سيحاول أن يبطئك عن السير إلى الملكوت، وقد لا يعلم هو أنه يبطئك، على أية حال خذ حذرك، ولا تجعل قلبك وعاء لكل ماء، إذ من الماء ما هو ملح أجاج، ومنه ما هو عذب فرات، فكما أنك تتخيّر الماء الذي تشربه كذلك عليك أن تتخيّر الكلام الذي تسمعه، إلا إن ملكت قلبك واستطعت أن تغلقه متى شئت فعندها اسمع إن اضطررت إلى ذلك، وتأمل كم حرف توكيد ذكر في هذه الكلمة، أربعة حروف "إن" و "لمن" اللام، واللام الأولى من "ليبطئن" والنون، فأربعة توكيدات تشير إلى العوالم الأربعة، النفس المتعالية والسير إليها بالتأله، والذي سيحاول أن يبطئك لعله بأن يشكك أو يقول وما الفائدة العملية من التأله وما شابه، والملكوت والسير إليه بالتعلم القرآن والعقل المباشر، والتبطيء هو أن يزهدك في تعلّم القرآن أن يخترع المقولات السيئة التي تحجب حقيقة القرآن كالمقولات الاثني عشر، والعقل المباشر بأن يقول هذا مستحيل أو خيال وما شابه، والآفاق والسير إليه بإقامة العدل والتعامل بالإحسان، فلعله يقول أن العدل سبب للفقر ولا يمكنك من السيطرة على الحكم، وأن الإحسان وهم الأقدمين،

والأنفس والسير إليه بذكر الله وأن تبني حياتك على التأمل في الله، ولعله يقول أن التأمل عمل العاطلين وما شابه، فافهم واحذر فقد عرفت.

ومقولة هذا المبطىء هي مقولة كل الكُسالى في العالم في كل المجالات، ليس فقط الروحية، إذ يقولون إذا رأوا أحداً يجتهد ليحصل على أمر ما، وأصاب هذا المجتهد نقص في المال أو الأمور أو حتى الموت، يقول "قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً"، أما إذا تحقق للمجتهد ما يسعى إليه، أصبح يقول "يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً"، حقاً وعلماً نقول صدق الله، هذه مقولة المتخاذلين الذين يبخلون على أنفسهم بالرفعة ويأمرون الناس بالبخل كذلك، إذا لم يصل قالوا الحمد لله انظروا إلينا سالمين، وإذا وصل قالوا يا ليتني كنت معهم، فهو لا يريد أن يمرّ بالطريق بالنقطة الأولى ونقطة النهاية، ويسير ما بينهما من مسافة اجتهاد وزمن، ولكن غالباً يحيى في خياله، إذ يصوّر له خياله الأمور بسرعة، وهو يريدها هكذا في الحياة.

وسبب تخاذل أمثال هؤلاء الرئيسي لعله أنهم لا يرون اللذة إلا في الحصول على الشيء، ويتصورون أن الاجتهاد والسير ليس فيه إلا الشقاء، كلا، بل إن السير نفسه لذة والوصول لعله أبسط لذة في الموضوع كله، كالرجل يسافر بالسفينة، يتمتع فيها، وفي المناظر الرائعة، وكذلك يتمتع عند الوصول. وكلما بذلك جهداً أكبر في أمر ما كان هذا الجهد بمثابة غذاء للّذة، يكبّرها ويجمّلها ويعظّمها، فكلما اجتهدت زدت، ألا ترى أن الذي يعمل عشرة ساعات في اليوم لمدة سنة ليشتري ساعة ما يتلذذ بها أكثر من الذي يشتريها في ثانية واحدة وبمجرد أن يسأل أباه أن يشتريها له.

إن الموت ليس كما يظن الناس، الموت رجوع إلى البيت، كالمبتعث الغريب الذي عاد إلى وطنه وأهله. ولما كان لا يعلم هذا يخشى الموت، فقد قال الله "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحيوة الدنيا بالآخرة" إذ قد يقتل الطاغوت وأعوانه موسى، وقبل أن يبدأ موسى دعوته يجب أن يكون على علم أن احتمال القتل وارد، بل لعله وارد بشدة خاصة في البلاد التي يحكمها طواغيت وأهلها أغبياء، كموسى في وسط قوم فرعون، فإن خشي الداعي الموت لجهله بحقيقته فإن ذلك سيؤدي أن يحرّف رسالة الملكوت، إرضاءً لفلان وتزلفاً إلى فلان، وكراهة الموت يعني حب الحيوة، ومن يكره العودة إلى بيته فمعنى ذلك أن أصبح من أهل البلدة التي كان فيها غريباً بالأصل، وإن كان البيت هو الملكوت، السماء، فالغربة هي في الدنيا، فكاره الموت هو من أهل الدنيا، أهل اللعب والتفاخر، وهؤلاء هم أهل الجاهلية ويحشر الإنسان مع من يحب.

دعوة الملكوت دعوة للعقل، أما دعوة أهل الدنيا دعوة جسم سيء، ولذلك فقتال كل فئة بحسب ما تدعوا إليه، "قل كل يعمل على شاكلته"، فقوله "ومن يُقاتل في سبيل الله" هو الدعوة إلى الملكوت، "فيقتل" يقتله أهل الدنيا أهل الأجسام السيئة، فقتلهم إذاً هو قتل جسماني، وهو الموت المعروف بين العامة، وقوله "أو يغلب" عقلياً وفكرياً، إذ هذه هي دعوته، لقد قتل فرعون السحرة أما موسى فغلب بحجّته، فافهم.

أجر الذي يقتل بسبب دعوته بالملكوت هو العودة إلى البيت مُعظماً مكرماً وأجر الذي يغلب هو إقامة المملكة المسيحية في الأرض، وهي مساهمة في الوصول بالناس إلى الأرض المقدسة. "والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

......—......

" وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين ءآمنوا يُقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً * "

يقول الذين يعقلون "وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله" فإذن لا ينتظر أحد من الناس أن ينزل شخصاً من السماء، أو يخرج آخر من الأرض، ولا يظن أحد أن الأرض المقدسة ستبنى بالكلام الفارغ، فهنا يبين الله أن مسؤولية أي شيء في هذا العالم ملقاة على عاتق الإنسان، الذي اختار أن يتحمل هذا العبث الثقيل الذي أبى أن يحمله أحد من الخلق أجمعين، فالمسؤولية إنما هي على الإنسانية.

فهؤلاء الضعفاء ليس لهم إلا الدعاء، ولكن كيف يستجيب الرب الدعاء، أينزل ملائكة من السماء، لا، إنما يصلح الله الناس بالناس، كما أنه يرزق الناس بالناس، فالسماء لا تمطر خبزاً ولو دعا ألف نبي وولي، حتى إصلاح الملائكة أنفسهم إنما أتمه الله بالإنسان، أليس لمّا سألوا العلم بقولهم "وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم" لماذا لم يوحي لهم الله، ولكن قال "يا آدم أنبئهم"، فإن كان إصلاح ما في السماء تم بالإنسان، فما ظنّك بإصلاح الأرض والناس، فكل دعوة بالكلام المزخرف من غير عمل لا طائل منها، وأي دعوة لا تدعوا إلى العدل بين الناس، ورفع الظلم عن المستضعفين، فهو دعوة باطلة، وظاهر أن سبب استضعاف الناس هو الذي يجب يقتل فكرياً، "فقاتلوا أئمة الكفر" فيجب أن ينظر العقلاء في جذر أي استضعاف ويبدأوا العلاج من هناك، وليعلموا أن الكتب المطلوبة ليست الموسوعات والبحث في الدقائق التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وإنما الغاية الأولى هي توفير المعيشة وحب العقل في كل الناس ثم بعد ذلك يفعل الله ما يشاء، والطواغيت لا يريدون أن تتوفر المعيشة للناس بسهولة حتى ينشغل الناس بطلب ذلك عنهم وعن ظلمهم، ولا حب العقل لأن الحر لا يُساق كالبهيمة، فوجهوا كل طاقاتكم لتوفير المعيشة للناس، وهي الطعام واللباس والسكن والطب، وزرع حب العقل فيهم، فإذا توفرت المعيشة وحب العقل في إنسان، وفي الناس، فقد جاءت أشراط الساعة الكبرى.

يقول عن الذين يرغبون في الملكوت "الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها"، اعلم أن الناس ثلاثة لا رابع لهم، فريق آتاه الله الروح من عنده فهو يصلح به، وفريق كره الحياة الدنيا وهو يريد الحياة الآخرة الحياة الروحية، ووحوش وبهائم باطن الأرض خير لهم من

ظاهرها. أما الفريق الأول فهو الذي يكلمه الله في قوله "ما لكم لا تقاتلون" لأنه لعل إنسان أو جماعة تعشق الملكوت ودراسة القرآن والتأله، فيغلب عليها حب العزلة واجتناب الناس والدعوة، وكم من هؤلاء في العالمين، فيذكرهم أنه من الأنانية السيئة الاعتزال عن الإصلاح وبناء الأرض المقدسة وترك الناس المستضعفين جسمياً وفكرياً في حيرة في الأرض، ومن كان روحانياً حقيقياً لا يمكن أن يسمع صرخات الناس ثم يعرض ويدخل صومعته ويقول "السلامة خير من الندامة، وهل رأينا من الناس الخير أو الرغبة في الاستماع إلى الخير، أخرج فأتكلم فأقتل، أُسلّم الناس من دمي وأجلس في بيتي خير لهم ولي"، ألا فليعلم من يقول مثل هذا أن الله إنما أعطاه ما أعطاه ليكون وسيلة لإعطاء الناس، كما أعطى الله آدم ليعطي هو بدوره الملائكة، فمن البخل الأكبر ترك الدعوة لمثل هذه المقولات، التي تدل على ضعف في اليقين وجهل بحقيقة الدين، "وإنا لله وإنا إليه راجعون".

أما الفريق الثاني فعليه أن يقوم بأمرين حتى يخرجهم الله من الظلمات، الجهل والفقر والمرض والحيرة وما أشبه، أولاً "ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها" وثانياً "واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً" إنما الإمداد بحسب الاستعداد، فالذي يجلس في غرفة مغلق الأبواب ومسدل الستائر في وقت الظهيرة ثم يقول، "ما هذه الشمس، لماذا تبخل عليّ بنورها"، هو جاهل معاند، لأنه إن أراد الشمس ونورها عليه أن يتعرّف لها، بأن يخرج من بيته، أو يكشف عن الستر الذي يحول بين نور الشمس وغرفته، فالشمس دائمة الإمداد، ولكن هل أنت على استعداد لقبول نورها، ماذا تسأل وماذا تفعل هو الذي يدلّ على استعدادك وقدره.

فلما قالوا "ربنا أخرجنا" دلّ ذلك على توفّر الاستعداد فيهم، وهو الرغبة في الخروج. ولما قالوا "واجعل لنا من لدنك" فقد عاهدوا الله أن يطيعوا وليّه إذا جاءهم يدعوهم للخروج من الظلمات التي هم فيها. ولما توفرت الرغبة وأقاموا العهد، وجب الإمداد، ولذلك قال لمن هم وسيلة هذا الإمداد "وما لكم لا تقاتلون"، كما أن الرغبة والدعاء لمّا توفر في الملائكة قال الله لآدم "أنبئهم بأسمائهم". إذن فالذين أعطاهم الله القدرة على إصلاح حال الناس، بتوفير المعيشة والترغيب في العقل على الأقل، ولا يقومون بذلك فقد كفروا بنعم ربهم، وعاندوا سنّته التي كتبها في خلقه، وخرقوا النظام الذي وضعه للعالمين، وإذا قاموا بما أمرهم وبنوا المدينة المقدسة التي نزلوا ليبنوها هم وإخوانهم فقد استحقوا أن يجعلهم الرب ملوكاً للأبد "في مقعد صدق. عند مليك مقتدر".

لماذا لم تكن الآية تقول "واجعل لنا من لدنك ولياً نصيراً" أو "ولياً ونصيراً"، فالولي إذن غير النصير، الولي إنسان، والنصير الروح القدس لقوله "ويؤيدهم بنصره" و "يؤيدهم بروح منه"، (إضافة عند النسخ : ولياً إنسان بدليل "إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا") فما إن يطلب الناس من الرب ولياً حتى يبعث لهم إن صدقوا، وما أشقاهم إن جاءهم فكذبوا، وما أسعدهم لو صدقوا ما عاهدوا الله عليه من حسن الاتباع وترك الغفلة والشهوة السيئة، وبناء الأرض المقدسة بدخولها مع ولي الله إذا جاء، وهو المهدي من لدن الله "ولكل قوم هاد".

يسأل المستضعف أولاً وليأمر الناس لكي يهديه إلى الملكوت، ولكن إن لم يجد يرغب في الوصول بنفسه بسلوك الطريق الأصعب حتى يؤيده الله بالروح القدس، فمن لا يرى المهدي فليعمل على أن يكون هو نفسه المهدي، ولذلك قال "واجعل لنا من لدنك نصيراً" واللدن هو علم من الله "وعلمناه من لدنّا علماً".

لقد جعل الله ميزاناً فاصلاً يبين المؤمن من الكافر، سواء من الدعاة الرسميين أو الناس العاديين، فقال "الذين ءآمنوا يُقاتلون في سبيل الله. والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت"، فكل من لا يدعوا إلى الملكوت فاعلم يقيناً أنه من دعاة الطاغوت، هذا هو قول الفصل في هذا الأمر، ومن لا يعرف ما هو الملكوت، ولا هو يريد أن يعرفه، فلاشك أنه ليس من الدعاة إليه، أليس كذلك أيها العاقل الكريم.

إن الخالق قبل أن يخلق وضع النهاية، الغاية من الخلق، وهي ما عبّر عنه بقوله "ادخلوا الأرض المقدسة" وهي جعل كل نور الملكوت يشرق في عالم الآفاق، وهذه الغاية سيصل الناس إليها عاجلاً أم آجلاً، وآية الوصول هي أنه كما أن الآن، الحياة الدنيا، الأكثرية جهّال والأقلية علماء، فعندما ينقلب الأمر، ويصبح الأكثرية علماء بالله والأقلية جهّال فعندها قد تحققت الآخرة، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، ففي كلمة واحدة الغاية من الخلق هي الحيوة في الأرض المقدسة.

فكل من يدعو إلى ذلك، بعمله ولسانه، فهو من عباد الله المخلصين، وكل من لا يدعوا لذلك فهو من الشياطين، أي الذين يبعدون الناس عن الغاية، وهذا قد يتم بقصد، وهو الكفر الأكبر، ويفعل ذلك الذين يكيدون للعوام ليضلوهم، وقد يتم بجهل، وكل من يتصدّى لتعليم الناس والخطب وما شابه قبل أن يدرس الملكوت ويفهم الغاية، فهو من هذه الفئة، وهم درجات، وسيلحق بالفئة الأولى إذا وجد من يدعو إلى الأرض المقدسة ومع ذلك يحاربه ويصد الناس عن سماعه.

وبذلك تفهم لماذا قال "فقاتلوا أولياء الشيطان" لأنهم تولّوا القيام بمهمة إبعاد الناس عن الغاية، وقتالهم يكون بتبيين زيف مقولاتهم، وعرض الحق أقوى تبيين لتفاهة الباطل "وقل جآء الحق وزهق الباطل" إذ الباطل كالظلام، يتحقق إذا اختفى النور، أما إذا أشرق "إن الباطل كان زهوقاً"، لذلك يسعى أولياء الشيطان أن يمنعوا الناس من سماع غيرهم، وتحريم قراءة كتبهم وما شابه، لأنهم كالظلام يخشون حتى من الشمعة أن تشرق فيتبين للناس وهن منهجهم، وفساد دينهم، وقبح نياتهم، ولكن أليس الصبح بقريب، "إن كيد الشيطان كان ضعيفاً" وهل أضعف من الذي يُمحق بشمعة، فما بالك لو أشرقت شمس الروح بالمهدي حامل القرآن.

لماذا لم يقولوا "ربنا أخرجنا من هذه القرية التي ظلمنا أهلها" أليسوا هم المستضعفين، لماذا عمّموا الظلم وقالوا "الظالم أهلها" ولم يقولوا "الظالم حكّامها وأمرائها وقضاتها" وما شابه، بل مجرد مطلق، فهذا يدل على أن الظلم تحقق بكل أنواعه، ظلم النفس وظلم الغير، وعمّ كل الناس، بكل طبقاتهم، فالمترفين يظلمون بالاستعلاء والنهب والاستضعاف، والمتوسطين يظلمون بعدم العمل على الإصلاح، والفقراء يظلمون بالسرقة وعدم الاهتمام لغير النفس مهما كلّف الأمر،

فالكل يظلم بكل أنواع الظلم، إلا هذه الفئة التي تريد الخروج من هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، فالفهم هو أنه كما أن أظلم وقت هو قبل الفجر، كذلك قبل ظهور المهدي حامل القرآن والروح القدس، فهذه الطائفة التي تدعوا الله أن يخرجها من هذه الحالة التي هم عليها مع من حولهم هي طائفة تؤمن بالإمام المهدي الممتلئ بالروح القدس، ولذلك قالوا "واجعل لنا من لدنك ولياً" فهي تعلم أن الله أرحم من أن يسأله الناس خبز الأجسام فييسره لهم، ويسألوه خبز العقول والقلوب فيحرمهم منه، وأكرم من أن يزين الأرض بعد الخريف بالربيع ويدع الناس في الظلم إلى الأبد ولا يبدلهم بالروح القدس ويجعله لهم ميراثاً كما فعل مع بني إسرائيل من قبل، فلا يزال الناس في الظلم حتى يؤمنوا بالمهدي، فإذا ءامنوا خرج بإذن الله لهم، وويل للذين يضعون شروطاً من رؤوسهم لمن يكون المهدي، كما فعل اليهود من قبل فكفروا بمحمد عليه السلام، كانوا يؤمنون بمخلّص، ولكنهم جعلوا له شروطاً، فلما أرسل الله على غير هواهم الفاسد كفروا به، كذلك هنا، فلعل أول الناس كفراً بالمهدي هم الذين يتبجحون كل يوم أنهم يؤمنون به وينتظرون خروجه، حتى إذا جاءَ قالوا، "ليس هو"، "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

من قوله "وما لكم لا تقاتلون" نفهم أن على كل عاقل أن يبحث في الأسباب التي تجعله يمتنع عن عمل ما والأسباب التي تجعله يعمل عملاً ما، وإن كان ليس على سبيل الاستقصاء، مع أن الاستقصاء خير ولكنه صعب جداً، إلا أن يتعمّق الإنسان في نفسه، فيشعر بأبعد خواطرها، التي تدفعه إلى العمل والشعور من حيث لا يشعر هو، فالآية تبين أن سبب أي عمل هو الذي يحكم، وهذا السبب يتغير إن وجدت الحجة الحسنة المقنعة، ولذلك قال "والرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا" ليذكرهم بحقيقة حكمه للأمور، وسبب عطاءه لهم دون غيرهم، وعلى الدعاة أن يخاطبوا الجذور والأسباب، وليس لهم غير ذلك إن أرادوا إصابة الهدف بسهولة وسرعة، زلزلوا الأرض وأتوا البنيان من القواعد يخرّ السقف على رؤوس الجهّال ومقولاتهم السيئة التي تبعد عن غاية السعادة التي نزلنا من أجلها.

لما قدّم القرآن قوله "الذين ءامنوا" على قوله "الذين كفروا" دلّ ذلك على أنه لا يصبح ثمة كفّار إلا إن صدع بالدعوة أهل الملكوت، فعندها يظهر المعاند من الموالي، إذ الكفر جحود مع عناد، ولا يتصور الجحود إلا إن وجد قبله بجحود، وليس الجحود هنا إلى أمر الأرض المقدسة، ولذلك بعد أن يقوم المعلّم بالدعوة، سيظهر الخبيث من الطيب.

لا يوجد حرف من القرآن موجّه لغير المؤمنين به، وعلماء القرآن هم الواسطة بين الملكوت وعقلاء الناس، واسطة دعوة لا غير، فإذا استجابوا صاروا إلى الملكوت وأصبحوا من علماء القرآن، وهكذا دائماً، وصار إلى الملكوت معناه أنه عرف نوره وسعى لبناء الأرض المقدسة، لا غير، فليدع الناس أوهام الصعود والنزول، فإنه لا صعود ولا نزول، وإنما حياة وعمل، فمن أُحي عقله في الملكوت صار كمن جسمه حياً في الآفاق، وإلا فما زال من أهل القبور، والصعود هو صعود النية إلى العمل لوجه الله، والنزول هو الفهم عن الله ثم العمل بهذا الفهم في هذه الحياة، ولكل مقام مقال.

ماذا كان سيغيّر في المعنى لو قال "إن كيد الشيطان ضعيفاً" بدل من "إن كيد الشيطان كان ضعيفاً". "كان" تدل على أنه في جوهر خلقه ضعيفاً، أي منذ أن خلقناه وهو ضعيف، و"كيد" أي العمل في الخفاء وإنشاء المقولات التي ظاهرها حسن ولكن السمّ في باطنها دقيق لا يُرى بسهولة، و"ضعيفاً" يسهل عليك أن تغلبه، ولا أرى كلمة أتم وصفاً لحال مقولات أهل السوء من هذه الكلمة العظيمة، فأحسن فهمها ودقق النظر فيما يعرض الناس عليك، حتى هذا الكتاب الذي بين يديك، لا تستثني أحداً، ولا تكن موسوساً، ولكن افهم ما يُلقى إليك، فإن الإيمان عمل على بصيرة، وأن يفهمك أسد خير من أن تعبدك البهائم، وأن تصحب ملاكاً خير من أن يعمل معك ألف شيطان.

وفوق كل ذي علم عليم.

.....—.....

" ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلوة وءاتوا الزكوة. فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية. وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب. قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة. وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. قل كل من عند الله. فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً * ما أصابك من حسنة فمن الله. وما أصابك من سيئة فمن نفسك. وأرسلناك للناس رسولاً. وكفى بالله شهيداً * "

بعد أن بين استعداد المستضعفين للخروج من حكم الجاهلية إلى حكم الملكوت، وأخذ عليهم عهد الجهاد الروحي في سبيل ذلك، وأنهم سيطيعون عالم الملكوت إذا جاءَهم، بين وجود فرقة لا تتبع ما قالت أنها ستتبعه، وبين حجتها والرد على هذه الحجة لكي يعودوا إلى الهدى الأحسن لهم.

قد يظن الناس، خاصة الذين طالهم ظلم الحكّام، أن الخروج من حكم الفراعنة وأمثالهم إنما يتم بالعنف والقتل الجسماني، إذ هم يريدون الإصلاح السريع، يريدون أن يزرعوا الشجرة ويأكلوا الثمرة في قرن واحد هو قرنهم، فإن جاءَهم عالِم يقول أن عليكم أن تزرعوا الشجرة وأولادكم سيأكلوا الثمرة، قالوا "ليس لنا حاجة بك" فهؤلاء من الذين يحبّون العاجلة، ولا يعملون إلا لصالحهم الشخصي، ولا يريدون أن ينظروا إلى أبعد من أنوفهم، فليعلموا أن الله يخلق بمراحل وأطوار، لا دفعة واحدة، فهل تشرق الشمس دفعة واحدة أم تمرّ بساعات طويلة حتى يكتمل الإشراق، وهل يولد الطفل عجوزاً حكيماً، أم يمر بمراحل المراهقة والشباب والرجولة والكهولة حتى يصل إلى القمة، كذلك في كل شيء في هذا الخلق، سواء جسماني أم فكري، لا يوجد شيء إلا ويمر بمراحل حتى يكتمل ظهوره، وضعيف النظر قد ينظر إلى البذرة فيقول "أنى تطعهم هذه آلاف الناس"، ولكن ما أن يزرعها الزرّاع، ويعتنون بها بسقيا الماء وما شابه، حتى تكتمل وتصبح تطعم الآلاف المؤلفة من الناس من لذيذ ثمارها، فيرجع القصير النظر فيقول "ما أحسن هذه الشجرة، ما أعظم هذه الشجرة" وينسى ما قال من قبل عن أصل هذه الشجرة.

ففي هذه الآيات المباركة، لمّا جاءَ عالَم الملكوت إلى المستضعفين، لم يقل لهم "تجهزوا للحرب" إذ المرض لا يعالج بمرض، العنف لا يعالج بعنف، النار لا تنطفئ بالنار وإنما بالماء، فأمرهم بثلاث "كفّوا أيديكم. وأقيموا الصلاة. وءآتوا الزكاة"

"كفّوا أيديكم" عن ماذا، إذ لا يصح أن يأمرهم بأن يكفّوا أيديهم عن شيء إلا إن كانوا باسطين أيديهم لهذا الشيء من قبل، فأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن معاونة الظلمة، لأن الظالم لا يقيمه إلا معاونة الناس له، فهل كان فرعون سيثبت لولا الجنود التي تثبتّ له أركان فرعنته "وفرعون ذي الأوتاد"، فلو ترك الجنود فرعون، ماذا بقي من فرعنته، لاشيء سواء كلام رجل أخرق، لعله يُلحق بالمجانين والسفهاء حيث يسكنون، وتحت وطأة التعذيب الجسماني والخشية من الموت بسبب الفقر وما شابه فإن المستضعف يفضّل عبادة الطاغية عن الكفّ عن العمل والموت جوعاً، ولذلك أمرهم بالكف ليس مجرّد دعوى فارغة، ولكن تتضمن في داخلها معاني وأوامر كثيرة. وهو أن على المستضعفين أن يخططوا كيف يمكنهم الحصول على الاكتفاء الذاتي من حيث الأمور المالية، إذ بسبب هذه الأمور يعاون المستضعف الطاغية ويعمل لصالحه، فعليهم إذن وضع منهج يسيرون عليه للحصول على الاكتفاء الذاتي تدريجياً، حتى يستطيعوا الوصول إلى تمام قوله "كفّوا أيديكم" فهي تشمل الكف عن العمل والكف عن الأخذ، ولا يتم ذلك إلا تدريجياً كما أسلفنا حسب سنة الله في خلقه، وتفصيل ماهية هذا المنهج تختلف باختلاف الناس والمكان والزمان وليس هنا محل تفصيل ذلك، وقد ذكرنا المجمل وفيه الخلاصة لمن احتاج واعتبر.

ما هي الصلاة هنا، الإنسان جسم وقلب وعقل، الجسم لعالم الآفاق، والقلب لعالم العلي العظيم، والعقل لعالم الملكوت، فأصل الصلاة هو في العقل، لأن مهمة الإنسان هي فهم الملكوت لكي يبنيه في عالَم الآفاق، حتى يصبح عالم الآفاق متصلاً مع عالم الملكوت، من حيث الصفات، لأنه إذا تشابهت صفة رجل مع صفة رجل آخر فقد اتصلوا ببعضهم، كما أنه إذا اختلفت صفة رجل عن رجل قلنا إنهم بعيدون عن بعض، حتى لو كانت أجسامهم ملتصقة، فأين النبي من أبي لهب حتى لو ضمّه إلى صدره، فالصلاة هي فهم الملكوت، والقرآن هو الكتاب الذي يصف الملكوت وحكمه وكل شؤونه، ودراسة القرآن هي إذن اتصال بعالم الروح والملائكة، فإقامة الصلاة هي دراسة القرآن لفهم حقيقته ثم إقامة هذه الحقيقة في هذا العالم، فمن تعلّم شيئاً من القرآن فقد صلّى، ومن عمل بهذا الشيء فقد أقام الصلاة، وويل للمصلين الذين لا يقيمون الصلاة "لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون".

عندما يتعلّم عاقل أمراً من أمور القرآن، قد يعمل به مباشرة، ولكن قد يوجد في عقل هذا المرء ما يمنعه من العمل بمقتضى ما تعلّم، كأن يأمره بعدم الغش فيقول عقله "ولكن الغش وسيلة سهلة لكسب المال" فيكون ذلك مانعاً من العمل بمقتضى ما تعلّم من القرآن، فلذلك قال "وءآتوا الزكاة" وهذا هو نفس السبب الذي يجعل إقامة الصلاة قبل إيتاء الزكاة في القرآن كله بوجه عام، فافهم فإن هذا من المفاتيح العظيمة، "والزكاة" هي أن تزكّي عقلك من الأمور التي تمنعك من العمل بمقتضى ما تعلّم عقلك من أمر الملكوت، حكم الله، فكم من الناس يعرف الكثير من أمور القرآن

ولكن كم واحد من هؤلاء يعمل بما علّم، وكم منهم يعرف كيف يزكّي نفسه عن الموانع السيئة التي تحول بينه وبين إقامة حكم الله، هذا أشهر من أن نفصل فيه.

فإذن على المستضعفين أن يقوموا بثلاثة أمور، الاكتفاء الذاتي من حيث الأمور المالية حتى يستغنوا عن العمل للطاغية الظالم، وَتعلّم القرآن والاجتماع لتدارسه وفهم أحكامه وأسراره، وَتعلّم كيفية التحكم في مفاهيم العقل والقدرة على الارتفاع عن السوء إلى الحياة الآخرة، الروح القدس.

فإن فعلوا ذلك فقد صاروا أهلاً لأن يكونوا أمة مقدسة تقوم بأمر الله في أرضه، "ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم".
"فلما كتب عليهم القتال" متى يُكتب القتال الجسماني ويصبح من مهام الأمة المقدسة أن تقوم به، حتى نفهم ذلك يجب أن نفهم أولاً على أي أساس تقوم أي حكومة في العالم، عامة، ثم سيظهر إن شاء الله ما نريد.

المجتمع مكوّن من أناس لهم أفكار ومذاهب ورغبات مختلفة، فإما أن يكون الحكم لصالح الأكثرية أو الأقلية، إذ لا مجال للجمع بين طريقة تقول "نفعل كذا" وطريقة تقول "لا، بل نفعل كذا" إلا طريقة واحدة، وهي أن يُعطى المجال للأقلية أن تدعوا الأكثرية إلى الطريقة التي تراها أحسن، فإن اقتنع البعض، وأصبحت الأكثرية تمثل أصحاب المنهج الذي كان أقلية فإذن أصبح من الحق أن يطبّق هذا النظام، وعلى الأقلية أن ترضى به، وإلا فلتهاجر وتترك البلد فإن أرض الله واسعة.

وإذا لم تقتنع الأكثرية بما يقول هؤلاء، فعلى هؤلاء أن يهاجروا من الأرض، ولا يثيروا القلاقل والمشاكل في البلاد، بل يتركوها بسلام، وعلى الناس أن يتركوهم يغادروا بسلام.

فإذن الحكومة تمثّل الأكثرية، ويجب أن تدع الأقلية تعبّر عن طريقتها للناس، بالكلام والجدال، وإلا فهي ظالمة، وهذا هو سبب حروب الأنبياء غالباً، وهو أنهم لا يخلّون بينهم وبين الناس، علماً منهم أن الناس إذا سمعوا حكم الله رغبوا فيه، فيزهدوا فيهم، فلا يجدون غير الخزي والعار إن عاندوا حكم الأكثرية، وهذا ما لا يريدونه، ولذلك يحولون بين الداعي إلى الله وبين الناس، الذين شبعوا من ظلمهم إياهم وأصبحوا يبغضونهم كبغضهم للشيطان، وإن الشيطان لا يحب أن يرى الإمام المهدي لأنه سيقتله وهو يريد البقاء لعلمه أن مصيره إلى جهنّم إن مات، فقد خسر الآخرة لمّا باعها بالظلم والاستعباد، وهل سيدع الدنيا أيضاً تفلت من يده من أجل داعٍ إلى الملكوت، لا، هذا لا يكون أبداً.

فإذا لم يرض الناس بدعوى الأقلية، لأي سبب كان من أسباب عدم الاقتناع، فيجب على الأقلية إما أن ترضى أن تحيا وسط هذا المجتمع بحسب حكم هذا المجتمع، وإما أن تهاجر ويجب على الحكومة أن تأذن لهم بالهجرة، لا كما فعل فرعون مع بني إسرائيل.

فإن الله قد جعل ثلاثة أسباب لجواز القتال الجسماني حصراً. "قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم" وَ "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم" (وَ "قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله")، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فقد ضرب الله له مثلاً في سورة البقرة المباركة، لما قال نبي بني إسرائيل لهم "ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله" فقال لهم "فهل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألا تقاتلوا" فقالوا، وتأمل في قولهم جيداً فإنه موضع الشاهد "وما لنا لا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبناءنا" فلأنهم أخرجوا من ديارهم جاز لهم بل كتب عليهم القتال. فلنُسمِّ الأول الدفاع عن النفس، والثاني الدفاع عن حرية الدين، والثالث الدفاع عن حرية الملكية. فهذه هي أسباب القتال الثلاثة، وإنما جاز فيها القتال بالعدل، لأن الظالم يستعمل السلاح ولا يسمع الكلام، فالعدل أن يُستَعمَل ضدّه السلاح، إذ لم ينفع معه إحسان الكلام.
ولكن أليس استعمال السلاح في الحرب ضد مبدأ عدم مقابلة العنف بالعفن، نقول إن آخر العلاج بتر العضو، وإلا فسد الجسم كلّه، فبتر عضو خير من قبر الجسم كلّه، وكذلك إن تُرِكَ كل ظالم فإن الأرض كلها ستفسد، إذ يأتي حنفة من كلاب الأرض، فترفع السلاح على عباد الله المخلصين المسالمين، فيستعبدوهم، لا والله لا يرضى مؤمن أن يخضع لظالم، "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض" أن نرجع إلى بيتنا في الملكوت خير من أن نبقى تحت الظلم في هذه الأرض الغريبة.

فإذن قوله "فلما كُتب عليهم القتال" يدل على تحقق أحد أنواع الظلم الثلاثة، الاعتداء على النفس، المنع من القيام بالدين، والاعتداء على أملاك الناس، عندما يجب أن لا يخشى المؤمن شيئاً، إذ إن مات رجع إلى بيته، وإن عاش أقام حكم الملكوت الذي إنما جاَء من بيته لكي يحققه، وهذا هو الفصل في هذه المسألة المهمة.

ما تقول في رجل بذل سنين من عمره في تعلّم أساليب الحرب وفنون القتال، ولما جاَء وقت الحرب بكى وهرب، أليس ضيّع عمره وأثبت سفاهة رأيه، كذلك علماء القرآن وطلّاب الحياة الروحية، إذا بذلوا الوقت في تعلّم دقائق السلوك والتحكم في النفس، إذا تعرضوا لموقف نسوا كل شيء، وتصرّفوا كما يتصرّف الجهلة، أو إذا واجهتهم فتنة من شهوات الدنيا من لعب وتفاخر يُسارعون إليها وينسون ما كانوا يدرسون من قبل، فهؤلاء يشبهون ذاك. "قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى".

إن كنّا سنموت سنموت لامحالة، فأيهما خير أن نموت في سبيل الوصول إلى الغاية التي نريدها أم نموت كما تموت البهائم حتف أنفها، أليس خير من أن ترجع إلى بيتك فيقال لك "لقد كنت كسولاً لا عزيمة عندك" أن يقول لك أبوك "لقد كنت مجتهداً محسناً، تعال واسكن جنبي" هذا ما يذكرك به القرآن في قوله "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" فأنت تعلم أن الموت سيتبع، ولكن أنت تختار على أي حال تريد أن ترجع إلى بيتك، كسولاً غافلاً أم مجاهداً عالماً، فاختر أحبهما إليك، ولا محالة الكل سيختار.

اعلم أن اسم "الله" في القرآن إما أن يعني الهوية المتعالية، العلي العظيم، وإما أن يعني الملكوت، وفي أكثر الأحيان، إن لم يكن كلّها إلا قليلاً يقصد الملكوت، وهذا موضع عظيم هو سبب ضلال أكثر الناس على مدى القرون في فهم القرآن، إذ يظنون أن اسم "الله" لا يقع إلا على الهوية العلية، فيقعوا في الغفلة أو الكفر أو التغافل، وهنا يقول "كل من عند الله" ثم يقول "ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك" ما الفرق بين الآية الثانية وبين مقولة أصحاب الآية الأولى، إذ قالوا أن ما يصيبهم من حسنة فمن الله وما يصيبهم من سيئة فمن نفس النبي أي النفس عامة، فقال أنهم لا يفقهون، ثم قال شيئاً شديد الشبه بقولهم وهو الحق. فكيف يكون هذا.

"الله" في الآية الأولى هو الهوية العلية إذ هي التي تمدّ كل شيء وهي سبب كل شيء، إذ لا قوة غيرها ولا قوة إلا بها، و"الله" في الثانية هو الملكوت، إذ كل نور وحسنة فمنه نزلت وبه أشرقت، وكل سيئة إنما هي باتباع أمور النفس وهواها بغير هدى الملكوت، وإن كان النور في الملكوت لا غير، فإن كل ما عداه ظلمة تامة إلا أن يتصل به، ولذلك "وما أصابك من سيئة فمن نفسك"، ثم قال "وأرسلناك للناس رسولاً" أي لتبين لهم حكم الملكوت، رحمة بهم أن يسلكوا سبيل الألم بدل الفهم، ثم "وكفى بالله شهيداً" أي أن العقل المستنير يشهد بأن كل ما جئت به حق "ويعلم الذين أتوا العلم أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق".

فمن أراد أن لا يقع في السوء والألم والعذاب فليسلكوا سبيل القرآن لأنه روح من الله، والله سعادة محضة.

وفوق كل ذي علم عليم.

.....—.....

" من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً * ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون . فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً * أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غيرالله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً * وإذا جاَءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً * فقاتِل في سبيل الله لا تُكلّف إلا نفسك. وحرّض المؤمنين. عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا. والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً * "

بعد أن بيّن حال المستضعفين الذين يريدون حكم الملكوت، في حال أن لا أرض لهم يقيمون عليها، ويقيموا الحكم الذي يرضاه الله لهم، وبين ماذا عليهم أن يفعلوا ليخرجوا من هذا الاستضعاف، وعندما تتحقق لهم أرض يقيمون عليها حكم الملكوت، يبيّن هنا أمور قد تجري في الأرض المقدسة وكيف يتعامل الناس معها.

”من يطع الرسول فقد أطاع الله“ فهذا يدل على اتحاد بين الله والرسول، فما معنى هذا الاتحاد، إذ قبل أن يصبح العبد رسول الله ما كان ثمة هذا الاتحاد، فهو ليس أمر ذاتي إذاً، بل مكتسب بعد ذلك، وحادث، وبما أن الإنسان جسم وقلب وعقل ونفس هي مجموع الثلاثة، ولا يمكن أن يكون الاتحاد واقع بين الله وجسم الرسول، إذ الملكوت ليس من الأجسام، لأن الآفاق هو عالم الأجسام، ولا يمكن أن يكون الاتحاد بين الله والرسول واقع للقلب، لأن القلب للوحدة والبساطة، النفس المتعالية، حيث لا طاعة ولا معصية، ولا خير ولا شر، ولا فوق ولا تحت، إذاً لم يبقَ إلا العقل، و“الله“ عالم الملكوت، العقل التام، إذن الاتحاد واقع بين الملكوت وعقل العبد، وهذا التزاوج بين نور الملكوت وقبول العقل لهذا النور هو النبوة، ولذلك قال عن الزواج الجسماني ”وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً“ وعن النبوة ”إذ أخذ الله ميثاق النبيين“، فهذا هو سبب كون كل من أطاع الرسول، المبلغ عن الملكوت فقد أطاع الله نفسه، إذ الرسول هو المعبر عن الملكوت.

”ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً“ هذا يدل على أنه في المجتمع المقدس يختار الناس ما يشاؤون من الأعمال، لا يجبرون على شيء، ثقة بكون كل إنسان سيختار الأصلح، ويدل أيضاً على أن الدعوة بالكلام لا غير، ومن علّم أمر الله فقد فرغت مهمته وأصبح حراً من ذلك التكليف، الذي هو شكر نعمة تعليم الله له.

وبما أن الكل سائر إلى الله لا محالة، طوعاً أو كرهاً، والرسول هو الذي يعبّر عن طريق الطوع، طريق الفهم، فإذا حضر مجلس الرسول الناس، فإن القرآن يبين كون بعض الناس سيفضلون النفاق، ”ويقولون طاعة“ أي علّمنا طريق السلام، وسنطيع، إذ نريد طريق الطاعة، حتى إذا عرفوا الأمر، وهو نتيجة بعيدة عن عقول الكثير من الناس، وهم ما زالت الشكوك في قلوبهم من حقيقة الرسول والقرآن، ولذلك ”بيّت طائفة منهم غير الذي تقول“ وسبب وقوع مثل هذا هو عدم التعمق في فهم القرآن، وعدم الاجتهاد في دراسته، إذ لا يوجد تسليم الأغبياء في دين الله الذي يعلّمه للأنبياء، ومع كثرة الدراسة ورؤية مصداق ما يعلمه الرسول بالقرآن، يصبح المرء يسلّم بكل ما يعلمه القرآن حتى لو لم يعرف بعد تمام الحكمة في الأمر، يشبه الأمر من يدفع لك حقيبة مليئة بالجواهر، فتختار عشوائياً ومن أماكن مختلفة عينات من هذه الجواهر لتفحص قيمتها، فإذا تبين لك كونها حقيقية وثمينة، وثقت في الباقي قياساً على ما رأيت.

وقوله ”والله يكتب ما يبيّتون“ يدل على أن كل شك قد يساور الإنسان في أمر من أمور القرآن فإن الله قد بيّنه وفصّله في كتابه، ولذلك لا يوجد سرٌ إلا وهو في القرآن، لا حكمة إلا وقد بينها القرآن، فدراسة القرآن تغني عن الألم والشكوك، فلْنتَعَلّم إذاً لكي لا نتألم.

”فأعرض عنهم“ لماذا لم يقل ”فعلّمهم“، هذا يدل على أنه حتى لو كان الرسول حاضراً يجب على كل إنسان أن يسلك طريق العلم الروحي بنفسه، وأن يكون له علاقة حميمية مع القرآن والملكوت، بلا واسطة أحد، من الناس، وأنه يجب على كل إنسان أن يتغلب على شكوكه ومسائله بنفسه، بل لن يحلّ أحد لك شيئاً، أنت وحدك الذي تستطيع أن تفعل ذلك بربك، فكل إنسان نبي نفسه، هذا معنى ”فأعرض عنهم“ بدل ”علّمهم“ لا يوجد في دين الله وسطاء، ولا شفعاء، ولا أسباب تكاسل

وتواكل وتخاذل، على كل إنسان عاقل أن يسلك بنفسه، ويصل بنفسه، ويكمل بنفسه، لا اعتماد على أحد من الناس، أنت اجتهاد والاجتهاد هو أنت، وهل الجهاد إلا التغلّب على الجاهلية، وهل الجاهلية إلا الظنون والشكوك والسيء من الأخلاق وأساليب الحكم والسياسة الباطلة المجرمة، على كل فرد من المجتمع المقدس أن يقوم بذلك بنفسه، والعلاقة بين الناس في المجتمع المقدس هي التعاون، والتعاون يعني التعاون، ولا يعني الجلوس وجعل أحد غيرك يبحث لك ويحمل عنك، هذا اسمه تكاسل وتخاذل وتكبّر، فأمر الله للرسول بالإعراض دليل على أنه على كل مؤمن أن يصبح رسول الله بأن يفهم أمر الله من كتاب الله بعون نور الله، فالمؤمنين كلهم سواء، وإنما يتفاضلون بدرجة اجتهاد كل منهم في تعلّم كتاب الله والعمل به.

ما هو التوكل على الله. هو أن تعمل بأمر الله واثقاً أنك ستصل إلى العادة، وأن الله هو الذي سيتكفل بذلك، بل قد كفله لك وفرغ من الأمر، فالذين يعملون بغير ما علّمه الله في كتابه، ظنّاً أنهم بذلك سينالون السعادة والعزة، بغير أمره، إنما يتوكلون على غير الله، على الطاغوت، وليست العزة إلا لله ولمن اتبع أمره، وكل من ترك طريق القرآن كتاب الله فقد اختار طريق سوط العذاب الذي هو أيضاً طريق إلى الله ولكنه أطول وفيه الكثير من الذل والألم، فإذن النتيجة البديهية أن كل فرد أو مجتمع يختار أن يتعلم من غير الله سينال الذل والألم، وكل مجتمع سيدرس كتاب الله كما أمر الله برسوله الحي فهذا مجتمع سيصل إلى القداسة والكمال عاجلاً أم آجلاً لا محالة.

"أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً"

لماذا لم يقل "تدبروا القرآن" بالأمر، لماذا جاءت "أفلا يتدبرون" وهي صيغة تدل على التحريض وبث لروح المحبة في السامع، لأن تعلّم القرآن إن لم يكن بفرحة وحب ورغبة عميقة فإنه لا فائدة حقيقية تُرجى منه، وهذه هي روح القرآن كله، لا يوجد شيء أمر مجرد كأوامر الأسياد الطواغيت للعبيد الأغبياء، كل شيء يجب أن يصدر عن محبة واقتناع، لا يوجد شيء غصب أو بإكراه معنوي أو جسماني، إنما اقتناع به والعمل حباً فيه، وروح المحبة هذه هي أعظم دافع لتعلّم القرآن.

ما معنى "يتدبرون"، التدبر من الدبر، وهو الخلف والوراء، كقوله "اتبع أدبارهم" أي سِر خلفهم وورائهم. وهذا مفتاح القرآن كله، فاعلم أن العوالم أربعة وهي في قوله "سنريهم آياتنا في الآفاق. وفي أنفسهم. حتى يتبين لهم أنه الحق. أولكم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد" والقرآن أمثال، والمثل من عالم الآفاق غالباً، فترتيب الأمر إذاً بحب الاعتبار في الآيات هو هكذا، عالم الآفاق، ثم الأنفس وراءه، ثم الملكوت وراءه، ثم النفس المتعالية وراءهم أجمعين، "وأن إلى ربّك المنتهى"، ولذلك قال "يتدبرون" فإذا كانت الآية مثلاً من الآفاق فننظر وراءه إلى الأنفس والملكوت والعشق، ولو كان الأنفس فالملكوت وراءه والعشق، ولو الملكوت فوراءه العشق، ولو العشق فهو الوراء كله، ويندر أن تكون الآية تصف النفس المتعالية رأساً، فإذن أول سمة من سمات متعلم القرآن هي التعمق، والغوص في المعاني، حتى في الحرف الواحد، فالسطحية في التفكير لا يمكن أن تكون أبداً أبداً أبداً في رجل يؤمن بهذا القرآن هو الإيمان، استحالة استحالة استحالة،

هذا كتاب حتى الصغار إذا أخذوه وقبلوه فإنهم يصبحون حكماء متألهين، كيحيى النبي، فيتحقق بالقرآن الكمال في قوله "ويطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق" فعندما يصبح حتى الصغار يعلمون أسرار القرآن. فهذه آية كون القرآن على العرش، وحتى ذلك الحين فإن صوت الجهلة قد ابتلعه حتى حين، وإن الله قد أذن أن يقذف يونس في من بطن الحوت، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

"ولو كان من عند غير الله" إن هذا القرآن هو الأساس الذي تقوم عليه دعوة النبي كلها، فإذا تزلزل، حاشا لله، أو انعدم والعياذ بالله فإن الدين كلّه يبطل، ومع ذلك فإن القرآن نفسه يضع اختبار لنفسه، ويضع مصداقية مصدره للتساؤل والبحث، ما معنى هذا الفعل، أليس من الأولى أن نحفظ أساس الدعوة ولا نعرضه للبحث والتساؤل، أليس يوجد مسائل يجب عدم الخوض فيها حتى لا يؤدي ذلك إلى الكفر هذا منطق الجهلة والسفهاء والمنافقين، ألا فلتعلم علم اليقين أنه بعد أن وضع الله قوله "ولو كان من عند غير الله" أنه لا يوجد مسألة واحدة، أياً كانت، مهما كانت، إلا وهي معرضة للبحث والتساؤل، لا يوجد سؤال محرم، ولا يوجد أمر لا يجوز التساؤل عنه، لا شيء لا يمكن التفكير فيه، لا شيء لا يجوز التفكير فيه، كل شيء معرض للتساؤل، اعلم هذا جيداً. فإن دولة الجهلة هي الحاكمة على عقول كل من يؤمنون بهذا الكتاب، والعجيب أن أكثر هؤلاء تراه يخشى التساؤل، ويقول أن هذا لا يجوز التساؤل عنه، إن الله لا يرضى عن مثل هؤلاء، المؤمن بالقرآن يتسائل عن كل شيء، ومن زعم غير ذلك فليس من القرآن في شيء، فليذهب وينسب نفسه لأحد الأصنام، اللات أو العزى أو ما يشتهيه قلبه، أما المتألهين فأهل بحث ونظر في كل شيء، وهذا ما يعلّمنا إياه رب العالمين.

وإنما يخشى البحث في الأمور من يعلم، ولو بعيداً في أعماق نفسه، أنه على باطل، وأن ما يرتكز عليه ضعيف وواهي قد يسقط بنفخة واحدة، كبيت العنكبوت، وأيضاً الذين يظنون الحياة استعباداً من الله، عليهم أن يقبلوا بحزمة من المفاهيم، ويتجرعوها رغماً عن أنوفهم، ولو كانوا كارهين، وإلا فإن أيدي الزبانية ستعمل عملها فيهم، ويلهم ما أشقاهم وأشقى الذين أضلوهم، إن الحياة سفر إلى الله، سفراً اختيارياً أنت تختار فيه الطريق، ويجب أن يكون عن رضاء حب، أيا كان الطريق، وإن الله سيبلغ إلى ما يريد من سعادة خلقه، أما أنت فعليك أن تتبع قلبك، حراً مختاراً ما تشاء من الطرق، ابحث كما تشاء، وتسائل عما تشاء، حتى ترضى، أو ازدد تعمقاً في الأمر، حتى يطمئن قلبك، ثم اعمل عن حب ورغبة في رضا الله الذي يجب أن يعطيك السعادة، وقد أعطاك إياها، وما عليك سوى اكتشاف طرق ترضاها لقبول هذه العطية منه، فإنه يرضى إذا أصبحت سعيداً، والتساؤل باب السعادة الأول.

قوله "لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً" ما معناه، أن الله وحدة نور بسيطة، وكل ما يصدر عنه نور واحد بسيط، فهذه هي طبيعة الملكوت، التوحد والبساطة، وكذلك يجب أن نكون في الآفاق، متوحدين بسطاء في العمل الأخلاقي متعمقين في الابداع والعمل البنائي، وكل ما زادت بساطته النورية زاد قربه من الله، وكل إنسان معقد في طبيعته، متشابك في تفكيره وأخلاقه، دليل على بعده، فعليه أن يحل أسباب هذا التعقيد الجالب للبؤس وأن ينحو منحى البساطة، وليست البساطة هي

السذاجة، إنما البساطة ما نتج عن العلم المعقد العميق، ألا ترى إلى بساطة أعظم المفكرين والمخترعين والمبدعين، لاتصال عقولهم بالعقل التام، الوحدة والبساطة، ولذلك ترى أن هذه الصفة تغلب عليهم، لكون باطنهم نشأ من الباطن الحق الواحد.

ما معنى الاختلاف في القرآن، أن يعلم في مكان أمر، ثم يعلم في مكان آخر أمر آخر عكس ذلك وغيره، بحيث لا يمكن الجمع بين الأمرين لكونهم من نفس الوجه، فهذا يسبب الاختلاف، هل نتبع الأول أم الثاني، فتنقسم الفرق وتنشأ الأحزاب. الله يقول، هذا يدل على أن الكتاب ليس كتابي، الآن تعجب من الذي سأذكره لك من أمر الواقع. لا يوجد فرقة ممن تنتسب إلا وهي تزعم أن في القرآن هذا النوع من الاختلاف، إلا ما ندر مما يخف صوتهم ووطأه كلمتهم، ولهذا نشأت المقولة الشيطانية، مقولة الناسخ والمنسوخ، هذا هو جذرها. أن القرآن هنا يقول افعل ألف، وهناك يقول افعل باء، ماذا نفعل إذن ألف أم باء، القرآن يقول، ألق هذا الكتاب في سلة المهملات والعن صاحبه الدجال على الله، أما هم فيقولون، باء تنسخ ألف، والحمد لله رب العالمين، ويل للمنافقين، ويل للذين تركوا أمر الله لأحاديث اختلقوها على رسول الله، من قال بالناسخ والمنسوخ فقد لزمه أن يقول هذا ليس من عند الله، بواضح أمر الله "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً".

لا يوجد في القرآن أي اختلاف إذا أخذه وحده، وأخذ كلّه، وفهم العاقل مواضيعه ورسالته وأسراره، القرآن وحدة نورية بسيطة، متكامل متوحد، كل أمر وله محل، ومن لم يأذن له الله في التكلم في القرآن ولم يأخذ علم القرآن عن الذين أذن لهم الله، فويل له ثم ويل ألف مرة لهذا المجرم السارق، وأعجب ما في الأمر أن هذه الأمة الهاجرة لكتاب ربها، الآخذة بكتب الأحبار والرهبان من دون الله ورسوله، قد اتفقت كلمتهم على أن يكونوا بين سارق مجرم وبين تابع لسارق مجرم، والشاذ لا حكم له.

القرآن محضر الملك، فمن اقتحم محضر الملك بغير إذنه فقد تعرض للقتل بنفسه، والناس كلهم، الذين يتكلمون في دين الله هم بين اثنين لا ثالث لهم "آلله أذن لكم أم على الله تفترون" ودليل أن الله لم يأذن لهم أنك تراه ينقل قول فلان وفلان، ولا يفتح له بشيء من نفس القرآن إلا قليلاً، كما قال في إخوانهم الذين طبع على قلوبهم "فلا يؤمنون إلا قليلاً".

بعد أن ذكر هؤلاء الذين سمعوا أمر الله ولم يقتنعوا به، حثّهم على التعمّق في فهم القرآن ودراسته، ومعرفة جذور الأمور وحقيقة العوالم، حتى يعملوا عن فهم وحب، فأمرهم بالتدبر، ثم إذا تركوا هذا الأمر، ماذا سيفعلون كيف نعرف أن هذا الذي يدعي أنه يؤمن بالدعوة المقدسة أنه يريد أن يتعلم وليس مجرد الكلام والكسل، يبين لنا الله آية هؤلاء فيقول "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به".

إن الناس تتأثر بالمجتمع الذي تسكن فيه، والكثير، إن لم يكن الأغلبية الكبرى تحب أن تبقى في حضن عادات المجتمع وعقائده حتى لا تُنبَذ منه وتحيى منعزلة مخذولة لا صاحب لها ولا ناصر.

فحتى في المجتمع المقدس سيوجد أمثال هؤلاء، ففي هذا المجتمع الناس تؤمن بالملكوت والقرآن، فترى هؤلاء يدعون كذلك أنهم يؤمنون بالله وكتابه، وبما أن هذا المجتمع مبني على العمل مختاراً محباً راغباً في الأمر، فإنهم يزعمون أنهم يريدون "طاعة" حتى يظهروا كأنل المجتمع نفسه، أي الذين سلكوا طريق الدراسة والفهم بدل الغفلة والألم، ولكنهم في حقيقة القلب لا يريدون الطاعة هذه، ولعلهم يعللون أنهم لم يقتنعوا، فحثهم الله على تدبر القرآن، فإذا رغبوا في تعلم الأمر وفتحوا القرآن فإن الله سيعلمهم بنفسه، ويسمعهم بكتابه في قلوبهم، "وآتاكم من كل ما سألتموه"، ولكن هذا لمن يريد حقاً أن يقتنع ويفهم أمر الله، فماذا عن الذين يقولون ذلك بأفواههم فقط، هؤلاء هم الذين يبينهم في قوله "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به".

قوله "أذاعوا به" دليل على أنهم يريدون أن يتبعهم أكثر عدد من الناس، وإذاعتهم هذه لم تحصل بين أهل العلم، وإنما حصلت بين عامة الناس الذين ما يزالون في البدايات، أو الذين يتعمقون ولكن ببطيء شديد، لانشغالهم بأعمالهم التي يساهمون فيها ببناء المجتمع من زواياه المختلفة، بدليل قوله "ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم" فلم يبق إلا عامّة المؤمنين، فهذه آية الجهلة الكائدين أنهم يخشون مواجهة العلماء، أما موسى فإذا دُعي إلى مواجهة العلماء ذهب بقوة الله.

"فضل الله" القرآن لقوله "وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً"، و"رحمته" الرسول لقوله "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، فقوله "لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً" دليل على أنه حتى بدون القرآن والرسول قد يوجد من لا يتبع الشيطان، وهم كل من يرغب في عمق قلبه أن يعرف الله، فليس اتباع الله هو حصر على أمة دون أمة، ولا لأهل كتاب دون كتاب، ولا يعرف الله بالزعم ووضع الأسماء على الجباه، وإنما الرغبة الصادقة في معرفته، "ومن يؤمن بالله يهد قلبه".

قوله "فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين. عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا" تأمل كيف جعل عمل الناس أولاً ثم النتيجة ثانياً "عسى الله أن يكف"، فمن يزعم أن مجرد الدعاء والصياح على المنابر هو سبب النصر وانتشار السلام هو واهم سفيه، إنما الاجتهاد في كل نواحي الحياة هو السبب الذي يرتب الله عليه النتيجة، فعندما يقول الله في القرآن أنه سيفعل كذا أو كذا، معناه أن هذا الكذا هو نتيجة لهذا الفعل، كقولنا "من وضع يده في النار فإن الله سيجعلها تحترق" وذكرنا لاسم الله لنتذكر أنه هو الذي جعل الأثر ينتج عن السبب، فإذا أردنا أثراً آخر نعلم ممن نطلبه، هذا من أحد الاعتبارات، فعمل الناس هو السبب الوحيد الذي يؤثر في المجتمعات، ولم نعهد من سنة الله غير هذا، إذ جعلنا الرب خلائف الأرض، وسلّم لنا أمر بناء الأرض، وهو يرانا ويسمع ما نقوم به، "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

"أشد بأساً" في نصرة الذين اختاروا طريق الفهم، و"أشد تنكيلاً" في عاقب الذين اختاروا طريق الألم، فماذا تريد أنت الله سيعطيك إياه، ولسان فعلك أعلى من لسان قولك، ومن اتبع الملكوت صار إلى السعادة الآن.

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

" مَن يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها. ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها. وكان الله على كل شيء مقيتا * وإذا حُييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها. إن الله كان على كل شيء حسيباً * الله لا إله إلا هو. ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه. ومن أصدق من الله حديثاً* "

الآيات السابقة تتحدث عن المجتمع الذي اختار أكثر أهله الحياة العليا بدل الحياة الدنيا، حياة اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر السيء، الذي ليس بالحياة العليا، وهنا يبين ثلاثة من أهم ما يمكن أن يتخلق به مجتمع ما، ليزيد الذين اختاروا الحياة العلمية الروحية بدل الحياة البهيمية الجاهلية، "والذين ءامنوا زادهم هدى".

الشفاعة، والمعاملة، وجود الغاية.

الشفاعة بلغة اليوم هي الواسطة والمحسوبية، وهل يتدمر المجتمع إلا عندما يترأس من لا يستحق اللهم إلا لأن أبو زوجته صاحب نفوذ، وما أشبه ذلك، وكذلك عندما يختار الرجل من يمكن أن يعاونه على نهبه لأموال الدولة والشركة وما أشبه، وكل عمل سيء يتم في الدولة وينعكس في المجتمع تستطيع أن ترى أن جذوره تضرب في مسألة الواسطة السيئة، وهذا ما يحذر الرب منه المجتمع الذي يريد الترقي في الحياة العليا.

فما هي الشفاعة الحسنة، هي أن توصل إلى الشيء من يستحقه، كمن يعرف من يصلح للقضاء مثلاً فيقدم للمسؤول عن توظيف القضاة، ويسروع له عملية لقائه، فمعيار الشفاعة الحسنة هو الاستحقاق كما شفعت زوجة موسى له عند أبيها "يا أبت استئجره إن خير من استئجرت القوي الأمين".

وظاهر أنها رأت استحقاقه للمهمة بعد أن رأت كفاءته بالتجربة العملية، وهو ما حصل عند ماء مدين، فيدل ذلك على أن الاستحقاق ليس الحب فإن المحب يرى محبوبه أحسن الناس، ولكن التجربة التي تظهر الاستحقاق هي المعيار في الاستحقاق.

وهذا عكس ما يحصل في المجتمعات الدنية تماماً، إذ معيار الاستحقاق هو ما المكسب الذي سيدره على الوسيط، سواء كان له شخصياً أو لمن يحب أن يراه ينتفع بذلك، كالذي يقدّم زوج ابنته لمصلحة ابنته، أو هكذا يظن على الأقل.

فإذن في المجتمع العالي التجربة هي التي تكشف عن الاستحقاق، ومن ثبت استحقاقه جازت الشفاعة له.

والمسألة الثانية هي المعاملة، لقوله "وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها" بداية من الكلمة مروراً بالوجه ثم العمل الذي قام لك به أخوك، إذا فعل شيئاً فأول ما يفكر به الإنسان الراقي هو كيف أعطيه أحسن من الذي أعطاني إياه، فإن لم يستطع فعلى الأقل أن أرد له حسن صنيعه كما فعل لي وخدمني.

وهذا مجتمع يبحث دائماً عن الأحسن في المقام الأول، فيدل ذلك على تحرّره من أنواع القيود السيئة. فهو مجتمع حر، إذ العبد هو الذي يفعل ما كلّف به فقط، أما الحر فهو الذي يفعل أكثر مما ينبغي منه، فالعبد همّه المثل أما الحر فهمّه الأحسن، وبما أن هذا مجتمع يبحث عن الأحسن فإذاً هو مجتمع حر، يقوم الناس بأعمالهم اختياراً. لا يوجد أي قهر فوقهم، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لا إكراه ولا إجبار، لا مادي ولا نفسي، كل يفعل ما يحب، وحبّهم هو الأحسن.

لماذا سمّيت التحية تحية، هي من الحياة، إذ هي كل ما يسبب الحياة، والحياة تعرف بحسب ما تتعلق به، إذ لكل شيء حياة وموت، فحياة الشجرة ظهور الثمرة، وموتها بانقطاع أصولها، وحياة الزوجية بالصحبة والحب بين الزوجين، وموتها اختلاف رغبات الزوجين، والحياة الاجتماعية بموت الفراعنة وموتها بتسلط أهل الأفكار السيئة على مقاعد الرئاسة في شؤونها، وهكذا في كل شيء، فأساس التحية الربانية هو البحث عن الأحسن في كل شيء، واستنباط الأحسن والعمل به هو خلاصة الحياة كلها.

وقوله "إن الله كان على كل شيء حسيباً" في خاتمة الآية يدل على أن الإحسان سبب للحياة، حتى في أصغر الأمور، كالابتسامة، وأن هذه الابتسامة ستؤدي إلى سلسلة من الأمور الطيبة التي لن يعرفها حتى صاحب الابتسامة نفسه، فهذا يبتسم لهذا، فيقوم الثاني ببداية يومه بفرحة، فيتقن عمله، فيفرح المستخدم لهذا العمل، وكذلك تدور الأمور إلى ما شاء الله لها، وهذا من معاني مضاعفة الله للأعمال الحسنة.

والمسألة الثالثة هي وجود الغاية في قلوب أهل المجتمع، المجتمع هو مجموع الأفراد الذين يكونونه، وليس كلمة ضبابية لا واقع لها، ومجتمع لا غاية في قلوب أفراده في حياتهم المشتركة هو ليس مجتمع وإنما مقبرة كبرى، الفرق بينها وبين المقابر المعروفة أن في هذا المجتمع الجثث فوق الأرض أما الثاني فالجثث تحت الأرض، ولعله من الخير لهذا المجتمع لو يصبح تحت الأرض.

بما أن المجتمع هو مجموع أفراده، والفرد إنما هو رغبات وصفات، والصفات ثمرة الرغبات، فالفرق إذاً هو رغبات، فالمجتمع هو رغبات مجتمعة، والأمر كالميزان، الكفة التي ترجح يُسمّى المجتمع بها، فإن وجد مجتمع فيه ١٠٠ فرد، ٧٠ لهم رغبة في الحياة الدنيا، و٢٠ في الحياة الآخرة رغبتهم، و١٠ مجانين، فهذا مجتمع دنيوي، بمعنى أن همّه الأول هو اللعب والأوهام المسببة للأمراض النفسية، فترى الغم والاكتئاب غالب على هذا المجتمع، مما يؤدي إلى انتشار المخدرات التي هي سبيل لتخفيف وطأة الاكتئاب، بدرجة معينة، فيؤدي ذلك إلى انتشار الدعارة والجرائم فيه، وهكذا تتسلسل الأمور، كل أمر ينتج أمراً، وجزاء سيئة سيئة مثلها.

وبعكس ذلك لو كانت الأكثرية من أفراد هذا المجتمع رغبتهم في العلم والعالم الأعلى، سيصبح الناس في جوّ من الراحة والحب الذي هو تقارب صفات الأفراد، وترى الفضيلة أمر حسن يحث عليه، وتسهل أمور المعيشة فيه لأن كل إنسان يعامل كما يحب أن يعامل، وليس الأمر خيالياً محالاً، فكما أن المجتمع يستطيع أن يكون مجاهداً في سبيل الاكتئاب والسمنة والدعارة والغباء فما الإشكال في أن يكون مجاهداً في سبيل الراحة والجمال والرقي والتأمل، الذين يصورون للناس أن هذا خيال مستحيل هم الذين عناهم الله بقوله "أو تهوي به الريح في مكان سحيق" الفرق بين الرغبة في الحياة الدنيا والعليا كالفرق بين من يطعن جسمه بالسكين وبين من يدهن جسمه بالزيت، فالأول أصعب من الثاني، فكون المجتمع استطاع أن يحيا في الجاهلية دليل صلب راسخ على أنه يستطيع بسهولة أن يحيا في العالم الأعلى.

والمجتمع شديد التأثير على أفراده، أي الأغلبية تؤثر على الأقلية لا محالة، وأقل تأثير أن تجعلهم ينعزلون في بيوتهم، فالمجتمع هو الرب، ولذلك وجب على من لا يستطيع أن لا يتأثر بقوة بمن حوله أن يهاجر، وإلا اعتُبِرَ منهم، أي سيصبح منهم، فإن كان المجتمع أكثره أصحاب الرغبات العليا، فإنهم كذلك سيؤثرون في أصحاب الرغبات الدنية، ومع الوقت سيكسبونهم إلى جانبهم بدون أي مجهود مقصود، ومع الوقت الأطول، وباستمرار الناس على حفظ الرغبات العليا فإن المجتمع سيأتي عليه يوم يصبح كل أهله من أصحاب الرغبات العليا، وهذا هو يوم القيامة "يوم يقوم الناس لرب العالمين" أي يقومون من موت الجاهلية، فيرونه وجهاً لوجه، أي تصبح صفاتهم كصفاته، وعلمهم كعلمه، وهو الإحاطة بالعالمين، الأعلى والأدنى، ويتم الاتحاد بينهما، وهذه هي الغاية التي يجب أن تركز في قلوب المجتمع الذي يرغب أفراده في أن يكونوا مقدسين ويتمّوا سبب نزولهم إلى الأرض، أو قل سبب خلقهم أصلاً.

وهذا معنى "الله لا إله إلا هو. ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه. ومن أصدق من الله حديثاً"

المجتمع أفراد، والأفراد صفات، والصفات ثمرة الرغبات، والرغبات ثمرة اختيار محور الحياة، هل هو الحياة العليا أم الدنيا. هذه الكلمة هي جوهر كل ما نزل من السماء.

فقوله "الله لا إله إلا هو" هو اختيار الحياة العليا محوراً وحيداً للحياة، ولا يوجد اختيار ثاني حقيقي للإنسان غير هذا الاختيار، لأن كل الباقي سيكون من ثمار هذا الاختيار.

وقوله "ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه" هو اجتماع رغبات الأفراد كلهم للحياة العليا، وأن الرب نفسه سيتولى وضع وتوليد الرغبات الضرورية والمهمة في قلوب الذين اختاروه، حتى يصلوا إلى الأحسن في المعيشة والترقي في العلم والإيمان والخلق العظيم، فقوله "ليجمعنكم" دليل على أنه هو الذي سيتولى ذلك، بمعنى أن من اختار العالم الأعلى كأساس ومحور لحركته وحياته فإن كل رغباته ستكون راقية روحية نافعة للمجتمع.

وقوله "ومن أصدق من الله حديثاً" يذكر بأمر مهم، وهو أن أصحاب الحياة الدنيا يعدون الناس وأنفسهم أن رغباتهم هذه سبب للسعادة، فلما يتركوا الرغبات العليا ظناً أنها تخلف وسبب للشقاء، فإنهم وقتها سيكتشفون كذب هذه الوعود، ولكن متى، بعد أن تسيطر التعاسة والاكتئاب والحروب على هذا المجتمع، كما قال في الكفار وإبليس وأن كل ما فعله إبليس هو أنه وعدهم، ولما يجربوا الحياة الدنيا ويكتشفوا عن تجربة أنها سبب للتعاسة والغم فعندها سيبحثون عن حياة أخرى، وليس غير الدنيا إلا العليا لا محالة، ووعد صاحب الرغبات العليا بأنه سيرى السعادة هو وعد يستطيع أن يتذوقه كل من يختار الحياة العليا في ظرف شهور أو سنين معدودة، بل لعله أقل من ذلك بكثير، وكذلك المجتمع إذا اختار الرغبات الروحية على البهيمية "ومن أصدق من الله حديثاً".

وهذه الآية رقم ٨٧ هي جوهرة من أغلى جواهر القرآن كله، وكل القرآن جواهر، فأحسن فيها.

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

" فما لكم في المنافقين فئتين. والله أركسهم بما كسبوا. أتريدون أن تهدوا من أضل الله. ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا * ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء. فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله. فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم. ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق. أو جاءوكم، حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم. فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا * ستجدون ءاخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم. كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها. فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم. وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا * "

بعد أن بين مجتمع المعرفة، الأرض المقدسة، وحال الناس فيه، وكيف أن غايتهم واحدة وأساس حياتهم واحد، وهو التأمل وطلب المعرفة، ذكر هنا بعض الفئات التي قد تظهر في المجتمع المقدس لكي ينجسوه بمقولاتهم السيئة وأساليب حياتهم السافلة، لكي يحذر الناس منهم، وقبل ذلك يحذروا أن يتشبهوا بهم وأن يقعوا في مقولاتهم السيئة التي تعذب المجتمع، فإن الوقاية خير من العلاج.

"فما لكم في المنافقين" من هو المنافق، يقول "إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله. والله يعلم أنك لرسوله. والله يشهد أن المنافقين لكاذبون". لقد قال المنافقون "نشهد أنك لرسول الله" والله يقول عنهم أنهم كاذبون، كيف، أليس كلامهم صدق، أليس محمد رسول الله، والله يقول "محمد رسول الله" فأين الكذب.

الكذب أنهم لا يعلمون حقيقة ما يقولون، فمن قال الصدق وهو لا يعلم فهو منافق، فلا اعتبار للظاهر عند الله، وهذا هو النفاق، أهل الظاهر، أي الذين يهتمون بالشكليات، ولا يبالون

بالروحانيات أو جذر الشيء، وهؤلاء هم الذين يدمرون المجتمعات أينما حلّوا، هؤلاء هم النار التي تهلك شجرة الرقي العقلي الإنساني.

وخير مظهر لهم هو الطقوس الدينية، هي آيتهم الكبرى، ترى أحدهم يدقق في أمور لا اعتبار لها، ويترك الأمور الكبرى ولا يبالي بها، فمثلاً يرى شاباً يصلي ولكنه يلبس فوق الركبة بقليل فيقول له "هذا لا يجوز، عورة، هذه الصلاة لا يقبلها الله" وفي نفس الوقت تراه يمر بامرأة تحمل أبناءها الثلاثة، وتدور بهم في الشوارع، وتبحث داخل المزابل عن طعام لها ولأبنائها، ويرى أصحاب القصور والثروات، ولا تراه يذهب إلى أحدهم ويقول له "أنفق على خلق الله بالمال الذي استخلفك فيه الله" بل تراه خانعاً للأمراء والوزراء والأثرياء، و لكن هذا الشاب صاحب البنطال القصير قليلاً هو الطامة الكبرى وسبب فساد المجتمع وأغلاله، أما الطاغية ناهب ثروات البلاد الفارض سيفه على رؤوس العباد فهذا مجتهد إن أخطأ له أجر، وهو مسلم في الظاهر والله يتولى السرائر، خذا وأمثاله هم المنافقون، مرض مجتمع المعرفة الأكبر.

كل الأمور، خاصة ما يصنّف أنه من الأمور الدينية، هي في جوهرها تعلّم أمر مجرد يقبله كل من يبحث بحر عقله ويتعمق في المسائل، والنفاق أن يؤخذ الظاهر للظاهر، بل وأسوأ من ذلك هذا المنافق الذي يلعن المتعمقين، هذا هو الذي قيل أنه في الدرك الأسفل من النار، فهو منافق معاند، ولا تبتلى المجتمعات بمثل هؤلاء إلا توقفت مسيرتها في النماء والعطاء والرقي، خاصة إذا كان لهم صوت مسموع ونفوذ في المجتمع، والعامة إذا سمعت لهم فهم شركاؤهم في نفاقهم، ولا يقوله أحد "نحن ليس لنا علم بمثل هذه الأمور" لأن الله يقول "ولا تقف ما ليس لك به علم" فاتباعك المنافق على علم نفاق، وعلى جهل فهو العذاب، فلا يتبع أحد أحداً، ويل الناس أليسوا من أهل القرآن واتباعه كما يدعون، أين هم من "إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا"، أين هم من "إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا".

إذا عرف الناس جذور الأمور فلا يمكن لأحدهم أن يكون تابعاً لأحد، وهذا ما لا يريده الكبراء الطواغيت، ولذلك يوهمون الناس أن الظواهر أمور مقدسة بنفسها وأنها يجب أن يقوم بها الناس تسليماً لله عز وجل، وليس عند الله تسليم من هذا النوع أبداً، وهؤلاء هم المنافقين، فكل من يكون من المتعمقين لا يكون من المنافقين، هذا هو الأصل العام.

فكيف سيكون حال المجتمع، والناس الذين يتبعون أهل المظاهر والوثنية هؤلاء، يقول الله "والله أركسهم بما كسبوا" صعوبة في المعيشة، وغم في النفوس، وتخلّف في المعرفة ووحشة من الحياة، والواقع هو برهان المقولات الأكبر.

"أتريدون أن تهدوا من أضلّ الله"، "الله" هو العالم الأعلى، العقل الأتم، فقوله "أضل الله" أي هذا المنافق أضل الله، أي أصبح لا يهتدي بنوره، فكيف نهدي من لا يؤمن بوسيلة الهداية، إذ إنما نهدي بأن نشرح. وإنما نشرح بالعقل والعالم الأعلى، فمن ضيّع العقل والملكوت، فكيف نهديه،

فكأننا نريد أن نقنع رجلاً بأن العسل حلو وهو قد قطع لسانه من قبل، هل نستطيع أن نجعله يتذوق.

”ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا“ كيف نعرف الذي لا يؤمن بالعقل التام، يقول ”فلن تجد له سبيلا“، ما معنى ”سبيلا“ أليس لكل أحد سبيل يتبعه، ”ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله“، المعنى أنه هو نفسه لا يعرف الطريق الذي يسير عليه، ولا الغاية التي سينتهي إليها، إذ الناس اثنان، سائر يعرف إلى أين يسير، وسائر حائر يمشي في الصحراء لا يعرف شيئاً إلا أنه سائر، وكذلك الناس في العلم والحياة، فريق يعرف الحياة وغايتها وقدر الخلق، وفريق يعمل ليعيش ليموت، لا يعرف من أين ولا إلى أين ولا لماذا ولا شيء، بل لعله لا يبالي بذلك أصلاً، وآثار ذلك تظهر في حياته، مصائب وغم وهموم سيئة وعقاقير وما أشبه.

فالرغبة في معرفة الحياة هي دليل رقي صاحب هذه الرغبة.

”ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء“ الفرق بين الود والحب، وما هو الكفر، وماهية حكم الله، هذه من مسائل هذه الآية المباركة.

الحب تشابه في الصفات. وهو أمر باطني، فقد يحب الأب ابنه ولكن يعنفه ويغضب عليه، أما الود فهو الحب الظاهر، أي المتجسم في الواقع الآفاقي، فقوله ”ودوا لو تكفرون“ يدل على أنهم يسعون بأعمالهم لكي يصبح الناس مثلهم، في المنابر والكتب والندوات، يقيمون أعمالاً واقعية ليصلوا إلى غايتهم، فالود هو الحب الذي يسعى صاحبه لكي يجسمه في الواقع الآفاقي، أما الحب فشعور باطني، ولذلك اسم الله هو الودود وليس الحب، لأنه يمثل لنا حبه ويظهره لنا، فالود أعلى من الحب، ولكن الحب جذر الود.

أما الكفر فهو ستر أمر ما، فهو قد ستروا جواهر الأمور ويريدون أن يقنعوا الناس أن عملهم وعقيدتهم هي الحق وأن ما عداها باطل، ويسعون لذلك بشتى الطرق.

وأما حكم الله، فإن الله يحكم بالنوايا والصفات، وليس بالأعمال وأعيان الشخصيات، فالعمل الواحد يختلف باختلاف النية التي في عمق صاحبه، يتصدق رجلين على شخص واحد، فيكون أحدهم في السماء لأنه أعطى لوجه الله، والثاني لا اعتبار لعطائه لأنه أعطى رياء الناس، مع أن العمل واحد في ظاهره، وهكذا في كل الأمور. فإصلاح النية هو الإصلاح الوحيد وما عدا ذلك فروع تنبت بيسر إن صلحت النية.

والحكم بالصفات هو سر مقصد القرآن، ففرعون ليس رجلاً عاش في التاريخ الغابر وانتهى، ولكن فرعون هو مجموعة صفات، أينما وجدت هذه الصفات، في أي زمن وأي مكان، فهذا الرجل فرعون ولو كان اسمه محمد، اسم الإنسان مجموع صفاته، وكذلك في الأقوام، فكل قوم، في أي زمان وأي مكان، إذا كانت لهم نفس صفات قوم نوح فهم قوم نوح، حتى لو كانوا أمة القرآن، فلا

اعتبار للدم وروابطة عند الله، ولا اعتبار لأي شيء غير صفات الإنسان، وصفاته مرآة رغباته، ولذلك قال "فتكونون سواء".

"فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله" كيف نعرف أنهم هاجروا في سبيل الله، بأن يرغبوا في أن يتعلموا أسرار القرآن.

"فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم" هذا إذن من العالم الأعلى بأن تكشف ألاعيب المنافقين ومكائدهم في كل مكان، وفي كل زمان، وأن ننظر في مناهجنا وعادتنا، ونرى أثر مقولاتهم فيها، ونقتلها كلها، فلا نُبقي شيئاً من السطحية والوثنية في مناهجنا كلها، وفي نظرتنا إلى الحياة.

"ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً" في قوله "فخذوهم واقتلوهم" عنى مقولاتهم وآثارها، وهنا عنى أشخاص المنافقين أنفسهم، فكل من لا يرغب في تعلم جواهر الأمور، ويتعمق في فهم الحياة ومظاهرها، فيجب أن لا يلتفت إليه الناس، ولا يسمعوه، ولا يتولى منصباً هاماً أو غير ذلك من شؤون التعليم أو التنظيم، لأنهم مجلبة والبؤس والتعاسة أينما حلوا بمقولاتهم السفيهة، ومجتمع المعرفة مجتمع له غاية واضحة ووسائل دائمة الترقي والتحسن، فلا مجال للمتخلفين في هذا المجتمع وإدارة شؤونه.

ويوجد حالة واحدة يترك فيها هؤلاء ولا يذكرهم الناس أصلاً، من باب إماتة الباطل بإماتة ذكره وهي التي وصفها بقوله "فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم" اعتزالهم ألا يدعوا إلى منهجهم بين الناس، سواء بالكلام أو بالكتابة، "فلم يقاتلوكم" ألا يجادلوا الباحثين والمتعمقين، والسلم هو أن يسلموا بطريقتنا ولسنا نطالبهم باتباعها، لأنا لا نكره أحداً على شيء من أمرنا، ولكن إن كان إتمام أمرنا يوجد عقبة تواجه هذا الإتمام فإنا سنجاهد لنزيل هذه العقبة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، إذاً يُترَك المذهب إلا إذا أصبح عقبة في وجه مجتمع المعرفة فعندها يبدأ الكشف والجدال حتى يختار الناس مجتمع المعرفة أو ما يشاؤون.

فيوجد فئتين من المنافقين، فئة تعمل على نشر نفاقها، وفئة تريد أن تبقى على نفاقها ولكن أن توفق بينه وبين منهج مجتمع المعرفة، الأولى فرغنا من وصفها وعملنا تجاهها، والثانية هي التي يصفها بقوله "ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم"، قوله "يأمنوكم" مجتمع المعرفة الذي يسكنون بين أهله، وقوله "ويأمنوا قومهم" أي مذهبهم وأهله، وغالباً لا يكونوا حاضرين في زمنهم نفسه، بل من الأزمان الغابرة، ولذلك أخّر ذكرهم عن ذكر يأمنوكم"، لأنهم يحيون وسط مجتمع ولكن يريدون أن يطبّقوا منهج قوم غابرين، وهؤلاء حكمهم نفس حكم إخوانهم من قبل، إذا أظهروا أمرهم وجب الرد عليهم، "وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً" فالله هو الذي سيؤيد بروحه المؤمنين بقدر الخلق ومجتمع المعرفة لكي يتم النور بهم "والله متم نوره ولو كره الكافرون".

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

" وما كان لمؤمن أو يقتل مؤمناً إلا خطئاً. ومن قتل مؤمناً خطئاً فتحرير رقبة مؤمنة. ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا. فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة. وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين. توبة من الله. وكان الله عليماً حكيماً * ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزآءه جهنم خالداً فيها. وغضب الله عليه. ولعنه. وأعدّ له عذاباً عظيماً * يا أيها الذين ءامنوا. إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا. ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا. تبتغون عرض الحيوة الدنيا. فعند الله مغانم كثيرة. كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم. فتبينوا. إن الله كان بما تعملون خبيراً * "

بعد أن ذكر مشاكل المجتمع الداخلية في المقطع السابق، بدأ هنا يذكر المشاكل الخارجية، والسر في ذلك هو أن الاهتمام بأمور الداخل أولى من الخارج، فيجب على المجتمع أن لا يبالي بعلاقاته الخارجية، وينفق عليها من موارد المجتمع ويوجد في داخل المجتمع فقر وحاجة، وكذلك في كل الأمور.

تختار أربعة مسائل من هذه الآيات المباركة، من هو المؤمن، ما هو تحرير الرقبة، نظرة في الأحكام المترتبة على القتل، ما هو الضرب في سبيل الله.

(من هو المؤمن) عرّفه الله بقوله المبين "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا" فمن ألقى السلام فهو المؤمن، وألقى السلام ليس كلمة فقط، وإنما فعل، أي هو من المسالمين، أي لم يتعرض لأحد باعتداء أو بغي.

ويحلو للمنافقين أن يجعلوا المؤمن صفة لمن اتبعهم في مذاهبهم ودقائق شؤونهم، وهي الظاهرة التي عبّر عنها الله بقوله "تريدون عرض الحياة الدنيا" فالإيمان عند الله صفة إنسانية عامة، كل مسالم مؤمن، لأنه أمّ الناس من الشر.

ولكن لما يريد المنافقين وحزبه أن يبسطوا سلطانهم على الأرض فإنهم يجعلون الإيمان صفة طائفية، فيصبح كل الناس بين أمرين، الانضمام لهم أو قتالهم، ولما كانت جيوشهم جرارة كان اختيار الاقتتال معهم ليس بالأمر الهين، وهم أنفسهم لا حرج في ذلك عندهم، لأن الحرب عندها تصبح من أمر الخالق العلي، وإن قتلوا فستحملهم الملائكة إلى الجنة رأساً، ولذلك قال "تبتغون عرض الحياة الدنيا" فإن وجدت الإيمان صفة طائفية فاعلم أن هذه الطائفة تبحث عن الدنيا، فلم تجد أقوى من أن تزعم أنها من جنود الرب الأعلى.

مَن أمن منه الناس فهو المؤمن، فالمؤمن عكس المعتدي، فالمعتدي لا إيمان له ولو لبس ثوب الأنبياء.

(ما هو تحرير الرقبة) تحريرها من ماذا، الكلمة عامة، فكل أمر يصدق تحتها، ويتبادر إلى العقل مسألة العبيد والجواري لما يسمع "تحرير رقبة" فلننظر في هذه المسألة أولاً.

الأسر هو سبب الاستعباد، وهذه الطريقة هي ما تعارف عليه الناس أنها الطريقة المشروعة، في الحروب، أما الاختطاف وما أشبه فليست مشروعة عند أحد من العقلاء عامة، وأصحاب هذه المذاهب التي تنتسب إلى القرآن تقول أن الأسر جائز في الدين الإلهي، وأن الاستعباد لا بأس به، ولذلك كانت أكبر أسواق بيع العبيد في دول الخلافات على مرّ التاريخ، حتى انتهى الأمر قريباً.

إذا امتنع السبب امتنع الأثر، هذه بديهية، فإن أمرت عبدك بالجلوس في البيت ومنعته من الخروج، أيعقل أن تكون موافقاً على أن يسبح في البحر مثلاً، لا، لأن سبب الوصول إلى البحر هو الخروج من البيت، فلما منعته من السبب دلّ ذلك على أنك لست مقرّاً لأي شيء من نتائج هذا السبب.

الأسر سبب الاستعباد، والله يقول "وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة" فالله قد منع اتخاذ الأسرى فكيف يُزعم أنه أقر الأثر الذي هو الاستعباد، لا أسرى يعني لا عبيد، الله يقول لا أسرى يعني الله يقول لا عبيد.

فما هو تحرير الرقبة إذاً، كل دَيْن على إنسان هو ما يعتبر استعباداً له، والفرق أن الدَّيْن استعباد اختياري، وإنما جاز لضرورته ووجود اختيار الإنسان فيه، فكل من دفع ديناً لإنسان فقد حرر رقبته، فإذن تحرير الرقبة هو رفع الدَّيْن عن الإنسان.

(نظرة في الأحكام المترتبة على القتل) الذي يقتل خطأ لا يُقتَل، أما العامد فيقتص منه ويجوز قتله عدلاً، ويوجد ثلاث حالات في القتل الخطأ، وكلها باعتبار المقتول في حالات مختلفة.

الأولى أن يكون المقتول مؤمناً، والثانية أن يكون مؤمناً ولكن من قوم عدو لنا، والثالثة من قوم بيننا وبينهم ميثاق.

ففي كل حالة ينظر الله إلى المقتول نفسه وإلى قومه، فمؤمن من قومنا، ومؤمن من قوم عدو لنا، ومؤمن أو غير مؤمن من قوم بيننا وبينهم ميثاق.

ويظهر أن الحكم متشابه باختلاف في الترتيب في الحالتين الأولى والثالثة، ويوجد حكم أنقص في الحالة الثانية.

وقد قسّم الله الأقوام إلى ثلاثة، قومنا، وقوم عدو لنا، وقوم بيننا وبينهم ميثاق، فإذا يجب على الحكومة أن تسعى لإقامة مواثيق السلام بينها وبين كل الأقوام ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، والتي ترفض السلام فهي تريد العداوة، لأن رفض الجلوس في غرفة فيها نور يعني ضرورة أن

الشخص الرافض يجلس في غرفة مظلمة، فإذا رفضت حكومة السلام فهي إذاً عدو لنا، وهكذا نعرف من معنا في السلام ومن ضدنا فنأخذ حذرنا.

وبما أن الله قدّم ذكر العدو على صاحب الميثاق فذلك يدل على أنه علينا أن نجعل دراسة العدو وأخذ الحذر منه أولى من غيره من المسالمين، فالذي يخشى مرضاً معيناً إنما يأخذ الدواء الواقي من هذا المرض المعين وليس من كل الأمراض، أو التي لا يغلب على الظن التعرض لها، ورافض السلام أقرب إلى الشر من قابله.

ما معنى العداوة في قوله "عدو لكم"، إذ لو كان المعنى مجرد رفض القيام بميثاق السلام عملاً بقوله "ادخلوا في السلم كافة" لما قبلوا أن نحرر رقبة مؤمنة، بل سيطلبون القصاص منه أو يحكمون عليه بحسب شرعهم وقوانينهم، أما لو كان المعنى العدو الحربي، أي المعتدي، وقام أحد من قومنا بقتل مسالم من قولهم من عامة الناس فلا يخلو الأمر من أمرين، إما أنه قتله في أرضنا أو أرضهم، فلو قتله في أرضهم لوجب أن يحكم عليه بحسب ما عندهم، ولو على أرضنا فيجب أن يتم إثبات القتل الخطأ بما لا يدع مجالاً للريب، لأنهم سيغلب على ظنّهم القتل العمد، فيجب أن يؤذي لرجالهم التحقيق مع رجالنا حتى يتم لهم اليقين بصدق وعدالة تحقيقنا.

كيف نقدر قيمة التحرير إذ تتفاوت هذه الأمور ولا يمكن جمعها في ضابط واحد في أكثر الأحيان، يقول "فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين" فيجوز أن نضع ضابطاً عاماً يقول أن الحد الأدنى للتحرير هو قيمة ٦٠ يوم عمل من أيام المقتول بحسب العرف، ولهذه المسائل أماكن غير هذه لبحثها. فما هذه إلا كلمة مجملة لإثارة الفكر في المسألة.

(ما هو الضرب في سبيل الله) يقول الله "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين" ما كان لرد الاعتداء فهو في سبيل الله وما عدا ذلك في سبيل الطاغوت.

قوله "تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة. كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم" يدل على أن المؤمن لا يبحث عن الأموال في شؤون الحرب، ليست هذه غايته، بل هذه آية القتال في سبيل الشيطان، "فعند الله مغانم كثيرة" فالباحث عن المغانم الجسمانية المقاتل من أجلها ليس من الله في شيء.

كيف نعرف الذين يريدون وجه الله من غيره، بآيتين، أن يبدأ بالقتال، وأن يأسر. مهما قيل في سبب الابتداء، ومهما جعل له من شروط، من بدأ بالقتال وغزا الذين لم يظهروا له العداوة فهو معتدي ملعون، ومن اتخذ الأسرى، غلمان وجواري وما أشبه فهو أخو الأول، ولن تجد الأول إلا والثاني إلى جانبه، بل هما وجهان لعملة واحدة، أينما وجدت الاعتداء وجدت النهب والأسر، وأينما وجدت الأسر فإن أمّه هي الاعتداء.

من ألغى اختيار الإنسان فقد كفر بالخالق كفراً أعظم.

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

" لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة. وكلا وعد الله الحسنى. وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً * "

بما أنه ليس في استطاعة الإنسان القيام بعمل متقن أو حتى غير متقن إلا إن وجدت فيه رغبة للقيام بهذا العمل، والرغبة إرادة لبلوغ محبوب، والإنسان يحب السعادة والعُلى. فلذلك بعد أن بين ماهية الجهاد في سبيل الله أراد هنا أن يقيم المجاهدون في سبيل الله.

بما أن القتال إنما هو لرفع الفساد، والفساد أصله الحقيقي في العقل، إذ الإنسان لا يعمل إلا بناءً على فكرة فإن كان حال الناس فاسداً فهذا معناه أن أفكارهم فاسدة، فالجهاد الحقيقي هو أمر عقلي.

يوجد طريقان للوصول إلى الأحسن، طريق الألم وطريق الفهم. طريق الألم هو القيام بتجربة عملية، وملاحظة النتائج واستنباط الأحكام التي تسري في عالمي الطبيعة والنفس الإنسانية، وعلى هذا قامت كل معارف الناس. وطريق الفهم هو دراسة كتاب الله المحتوي على نتائج المعارف النهائية خاصة في المعارف المتعلقة بالنفس الإنسانية، التي هي محور كل علم ومعرفة في العالم كله، إذ المعرفة خادمة الإنسان.

فمثلاً رجل يريد أن يعرف فوائد الزيتون، يوجد أمامه طريقين، إن كان أول باحث في ذلك، الطريق الأول أن يزرع البذرة، وينتظر سبع سنوات حتى تثمر، ويرعاها خلال ذلك ويحافظ عليها، ثم يبدأ بدراسة الزيتون بعد أن يثمر، والطريق الثاني أن يوحي الله إلى رجل أن الزيتون فيه فوائد كذا وكذا، فقبل أن يقدم على الزراعة وبذل المجهود العظيم في ذلك الأمر، يذهب إلى هذا النبي ويسأله عن الزيتون، فيخبره أن خالق الزيتون قال كذا وكذا فيه، فينظر هل يريد أن يزرع أم لا بعد أن يوازن بين المنافع والمجهود الذي سيبذله في سبيل هذه المنافع.

ولو ترك هذا النبي كتاباً فيه هذه الأمور، ثم جاَء من بعده هذا الرجل ودرس الكتاب وعرف فوائد الزيتون فإنه سيصل إلى نفس النتيجة فو وُفِّق في الدراسة.

فطريق التجربة وطريق الدراسة، والتجربة تشمل تجارب الآخرين، والدراسة هي دراسة كتاب رب العالمين.

يقول القرآن هنا أن طريق التجربة أعظم من طريق الدراسة، وكلا وعد الله الحسنى، إذ كلاهما سيصل إلى ما يريد، ولكن السبل تختلف، يقول "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم" فما سرّ هذا التفضيل.

هو في ثلاث، العالمية، الشعور بالحياة، كرامة الإنسان.

أما العالمية: فلأن المؤمن بالقرآن إذا استنبط أمراً من القرآن فلن يستطيع أن يقنع به إلا المؤمن بالقرآن، فلو ذهب إلى دولة يهودية مثلاً وقال "إني استخلصت كذا" فسيسألوه "وما برهانك" فإن قال "القرآن يقول كذا وكذا" فغالباً سيردون عليه "ولكنا لا نؤمن بهذا القرآن"، أما لو كان استخلص الأمر عن طريق تجربة واقعية شخصية عقلية فإنه إن عرض عليهم مشاهداته وأدلته العقلية فإنهم سيقبلونها، ثم يفحصونها بأنفسهم، وهذا ما يجري على العالم كله، ولذلك لا يهم في التجربة المباشرة ما دين العالِم أو لونه أو عمره أو أي شيء، كل ما يهم هو ماذا شاهد وماذا استنبط وعلى أي أساس استند. وهذا يفتح باب توحد الناس تحت راية العقل والواقع.

وبالطبع لو استخلص باحث أمراً من القرآن ثم أيده بأدلة واقعية عقلية فإن له نفس قيمة التجربة، بل لعله أعظم منها، لأنه يقرب الناس إلى القرآن فينتفعوا به، وبالرغم أن القرآن يقين للعارف به ولكنه عند غير المؤمن محل لنشوء الفرضيات التي هي مجرد فرضية حتى تؤيد ببرهان واقعي مجرد.

وأما الشعور بالحياة: فلأن صاحب التجارب المباشرة إنما يبحث في العالم من حوله وفي نفوس الناس، ويدقق النظر في ذلك، ويحاول أن يستشف الأحكام التي تحكم هذه الظواهر، وكل ذلك يولد فيه شعور بالحياة لا يعرفه إلا من ذاقه، وكلنا قد ذاق طعم التجربة ولاشك، فكم موقف وقع فيه إنسان جعله يقوله "لقد تعلمت من هذا الموقف كذا وكذا" والحياة ومواقفها كلها تجارب، ولكنها تجارب عفوية غير مقصودة، أما الباحث صاحب طريق التجربة فإنه يعلم ماذا سيجرب وأين ومتى.

وتأمل الفرق في نفسك بين أن يقال لك "الأنانية بداية النهاية في العلاقات الإنسانية والزوجية" وبين أن تجرب أن تكون أنانياً مع زوجتك فتنظر إلى عواقب فعلتك، ومن درس حالات الطلاق فسيرى أن الأنانية هي السبب الأكبر للطلاق، وهكذا في كل أمور الحياة، فرق عظيم في مشاعرك بين أن يقال لك "صواب وخطأ" وبين أن تجرب بنفسك وتكتشف بنفسك، أو على الأقل أن ترى الأثر السيء أمامك. فلا داعي لتجريب المخدرات إن ذهبت إلى مراكز إعادة التأهيل ونظرت في حال أهلها.

وأما الكرامة الإنسانية : فلأن الذي يُتصدّق عليه ليس كالمتكسب من عرق جبينه، والذي يُؤتى المعلومة بلا أن يجتهد في تحصيلها فهو كالعجوز والأرامل المرضى، مذلول لمن يعطيه، ومذلول في نفسه عامة، أما صاحب التجربة فمرفوع الرأس عزيز، ويقدره الناس للآلام التي مر بها وللأموال

التي أنفقها ولحياته التي بذلها، والله أكبر المقدرين له، فإنه ينظر إليه كالأب الذي ينظر إلى ابنه المجتهد في الدراسة، والذي لا يشعر بذلة الصدقة لهو الذليل المتعمق في الذل.

ولعلك ستسأل "وهل دراسة القرآن تذلل" أقول "هل عرفت الآن سبب صعوبة فهم القرآن"، "إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا"، دارس القرآن مجتهد، ولكنه غير معتبر عند الذين لا يؤمنون بالقرآن، فعليه أن يضاعف اجتهاده لإثبات ما استخلصه من كتاب ربه، فمن هذا الاعتبار، دارس القرآن العامل على إثبات مقولاته هو أعظم من الباحث المجرد، بشرط أن لا يكون متميزاً في البحث التجريبي لمقولاته إن وجد أن الأدلة ضدّها، فيتّهم فهمه للقرآن قبل اتهام نتائج التجربة إن كانت يقينية لحد بعيد.

فبقدر الاجتهاد يكون الارتفاع في الدرجات، ولا خير في بشر لا يجتهد إلا إن درس اجتهادات الآخرين وتعمق فيها ودعا إليها. فيكون تابعاً لمجتهد "ومن تبعني فإنه منّي" بشرط أن لا يتعلق بمجتهد دون آخر، فالعبرة بالعلم لا بالعالم، والتعلق بشخص المجتهد هو داء الإنسان القديم الذي لم ينقطع، وهو من أكبر العقبات في سبيل الترقي إلى قدر الخلق، فتصور لو أن العلقة قررت أن لا تصبح مضغة، ماذا كان سيحصل للمسيح، هل كان سيولد فينير العالم بنور الرب التام.

أحسن اجتهاد في العصر هو الذي يرقي الناس من طور إلى طور، وويل لمن يقف في وجه هؤلاء المجاهدين، وطوبى لمن يقف معهم.

ما معنى الترقي في الدرجات، يقول الله "رفيع الدرجات ذو العرش" والدرجات سبعة أحرف، فيوجد سبع درجات، كسبعة أيام وسبعة سموات، فوقها العرش وهو الذي حكم كل شيء، فكل أحكام عالمي الطبيعة والأنفس الإنسانية من هناك، ويقول "الرحمن على العرش استوى" ويقول "الرحمن علم القرآن" ويقول عن ملكة سبأ "ولها عرش عظيم" فإذن العرش هو محل استواء الملك الذي وضع أحكام العالمين.

ويقول "وجعلكم ملوكاً" وهذا هو الفرق بين أديان السوء ودين الله، دين الله يريد أن يجعل الناس ملوكاً، أما أديان السوء فتريد أن تجعلهم أنعام وعبيد، وفرق عظيم بين أن تكون من العبيد أو من الملوك.

ولذلك قال عن المؤمنين بدينه "في مقعد صدق عند مليك مقتدر" ولم يقل "عند المليك المقتدر" لأنه من شدة حبه للناس يريد أن يجعلهم مثله، ولذلك قال "مليك" فيوجد ملوك آخرين، مَن هم، هم المؤمنين بالعالم الأعلى "اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً".

فإذا تأملت في كلمة "عرش" ستجد أنها قلوب "شرع" إذا قرأتها بالعكس، وقد وصف الله القرآن بأنه حبل "واعتصموا بحبل الله جميعاً" فتصور لو أن رجلاً يقف في غرفة في مبنى من عشرة أدوار، وألقى إليك الحبل وأنت في الأرض، فإلى أين يريد أن تصل، أليس إلى الدور العاشر،

فبداية الحبل هي النهاية التي يريد أن يوصلك إليها الذي ألقى إليك الحبل، والقرآن ألقي من الرحمن الذي على العرش استوى، فمعنى ذلك أنه يريد أن تصل إلى العرش، لتصبح به ملكاً.

ما معنى أن تكون ملكاً، أن يصبح عقلك كعقل الله، عندما تفهم كيف يحكم ولماذا يحكم وبماذا يحكم فعندها يتحد عقلك بعقل الحاكم، وتشعر بقرب عظيم بينك وبينه، لأنه فهمته، وبقدر فهمك لأعماله يكون قربك منه، والقرآن هو محل أسرار حكم الله، ففي باطنه، باطن قصصه وأحكامه، يوجد أسرار حكم الملك القدوس، فمن عرف أسرار القرآن أصبح ملكاً بالله، "درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً".

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

" إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم. قالوا فيمَ كنتم. قالوا كنّا مستضعفين في الأرض. قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً * "

في أي أرض الناس إما يقيم حياته على أساس اللهو واللعب، وإما يقيم حياته على أساس معرفة الرب، والأرض التي يغلب على أهلها المعرفة هي الأرض التي يجب أن يهاجر إليها المؤمن، أي أهل المعرفة، وإضعاف دولة اللهو واللعب والجهل يكون إما بهجرة الصالحين العقلاء منها، وإما بإرسال دعاوة التنوير إليها، وبعد أن ذكر القرآن الجهاد وحرّض عليه حتى يكون جند المؤمنين وراء الدعاة الذين تمنعهم الدول المشركة، أي المستغلة لجهل الناس من أجل أن تبقى سيطرة، كفرعون، وهنا يبين القرآن الطريقة الأولى وهي طريق هجرة العقلاء من بلاد الجهل والتخلف إلى بلاد المعرفة والعطاء.

يحتج الناس بأنهم "مستضعفين في الأرض" ولكن هذا كذب، لأن الله عذر المستضعفين بحق، لقوله "إلا المستضعفين" فهذا كقول المنافق "نشهد أنك لرسول الله" وشهادة الله أنهم من المنافقين، الكاذبين.

فالمجتمع الذي يسكن فيه الإنسان هو الذي يشكل الإنسان، كما يشكّل الخزّاف طينته بحسب الشكل الذي يريده، فإن كان المجتمع مختلف جاهلي، لا يعرف تطوراً ولا يحقق ديناً ولا يرجوا لقاء الرب، أي لا يريد أهله أن يكونوا كالرب في أسمائه الحسنى، بل كل همهم الإبقاء على تراث الآباء والأسلاف، والركون إلى الجهلة الذين يمنونهم بالجنّة بعد الموت وما أشبه، ويرسمون لهم حياتهم كما يرسم الراعي طريق البهائم التي يسيرها، فهذا المجتمع كيف تتوقع أن يظهر وجه أهله، هل يكون جميلاً أم قبيحاً، فليس لأحد أن يحتج بظلم وجهل من حوله عند الله ويقول "هكذا هو الحال ويجب أن أتأقلم معه". لأن من رضي أن يسكن داخل مزبلة ولو مجبراً فإن رائحته ستصبح كرائحة أصل المزابل، حتى لو كان عابداً عالماً.

ما معنى الاستطاعة هنا في الاستثناء "لا يستطيعون حيلة"، الحيلة هي الخطة الخفية التي لا تظهر غايتها لأحد، ولا يعرف الغاية إلا أصحاب الحيلة، فهنا قد يمنع الناس من ترك مجتمعاتهم والانتقال إلى مجتمع آخر، المنع الذي قد يفرضه الناس عليهم، فإن استطاع العاقل أن يهرب من مجتمعه بأن يُظهر أنه مسافر لتجارة مثلاً أو ما شابه من أنواع الحيل، كان بها، وإن حاول ثلاث مرات وفشل فهو المعذور عند الله، وسيجعل الله له باباً للنفاد، لأن من يتق الله يجعل له مخرجاً.

وقوله "ولا يهتدون سبيلا" أي لا يعرفون إلى أين يتوجهون، فقد يستطيع العاقل أن يسافر بنفسه وأهله ولكن لا يعرف مجتمعاً يستحق أن يسكن فيه، فهو يخشى أن يترك موطنه فيذهب إلى موطن أسوأ منه، ففي حالة عدم قيام مجتمع المعرفة، والذي مسؤولية إقامته هي على عاتق بني إسرائيل وأهل القرآن، فإن لم يقيم بني إسرائيل مجتمع المعرفة، ولم يقيم أهل القرآن مجتمع المعرفة كذلك، نزلت أنواع العذابات كلها على رؤوس الناس، حتى يصبح كل الناس تكره أهل التوراة والمؤمنين بمحمد ويرونهم أقبح خلق الله، كل ذلك حتى يقوموا للعمل ويكفوا عن الجهل والنفاق والاخلاد إلى الأنانية وفرقة المذاهب وتنافر الطوائف، فحتى يقوم مجتمع المعرفة فاللعنة حالّة على أتباع موسى وأتباع محمد، "وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

فإذن لا يُعذَر أحد ببقائه في مجتمع الجاهلية إلا من مُنِع من السفر بعد أن بذل كل جهده ثلاث مرات، أو من لا يعرف أين هو مجتمع المعرفة لحقيقج جهله أو لعدم تحقق المجتمع أصلاً، أما من يعرف أين هو هذا المجتمع ويستطيع الهرب والفرار عن الظالمين فيجب عليه الهجرة إن كان من الصادقين مع رب العالمين.

هذا من أهم الأحكام العملية في هذه الآية المباركة، فلنذكر من العلم العرفاني ما يتيسر.

لماذا قال "توفاهم الملائكة" مع أنه قال في موضع آخر "الله يتوفى الأنفس" وآخر "قل يتوفاكم ملك الموت". الله، ملك الموت، الملائكة، نسب التوفي لهؤلاء الثلاثة فما معنى ذلك. هذا هو تنزّل اأمر من الروح الأعلى إلى رئيس أمر التوفي، إلى جنود الرئيس، كما أن في عالم الخلق جاَء الأمر كذلك في قوله "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" فالله هو الروح الأعلى والرسول هو صاحب الوحي الخاص، وأولي الأمر هم الأتباع المؤمنين الذين يقابلهم في العالم الأعلى الملائكة.

وكما أنه يوجد ملك للموت وملك لتنزيل الوحي، كذلك في كل شأن من شؤون الحياة يوجد ملك رئيس وملائكة تحته أو قل معه كالجنود لقائد الجيش إن شئت، وفي هذا العالم لا ينزل إلا الجنود، أما الرؤساء فهم الملأ الأعلى المذكور في قوله "ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون" فالملأ الأعلى يرأسه الرب الروح الأعظم، والمجلس مكوّن من الملائكة المقربين الرؤساء، ويشبه هذا في عالم الدنيا مجلس الوزراء والملك الذي هو رئيس مجلس الوزراء، فوزير العدل لا ينزل بنفسه إلى المحكمة أو الشارع ليراقب حركة المرور، ولكن جنوده أي أعوانه هم الذين يعملون بأمره ما يشاء بحسب السلطة التي أعطاه إياها الملك.

الملك ثم الشعب كله، ومن الشعب يصطفي الملك وزراء ويعين لهم أعوان بعد أن يعطيه سلطات معينة لا يجوز له تجاوزها، ومهام معينة عليه أن يتمّها، كذلك في العالم الحق الأعلى، الرب والملائكة، ومن الملائكة يصطفي الرب ملائكة رؤساء لكل جانب من جوانب الحياة والموت، حتى الورقة التي تسقط من الشجرة، والرب نفسه لا يقوم بنفسه هو بهذه الأمور، ولا الرؤساء، وإنما الجنود، أي الملائكة، ولكن بأمر الرئيس الذي أذن له الرب وآتاه السلطان منه، ولذلك قال "أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء" عن ملك الوحي جبريل، وينسب الوحي وتنزيله لجبريل كما نسب التوفي إلى ملك الموت مع أن جنود ملك الموت هم الذين يقومون بالتوفي العملي لقوله "إن الذين توفاهم الملائكة" فكذلك الوحي ليس جبريل نفسه ولكن جنوده، ولذلك قال "ن والقلم وما يسطرون" بالجمع كما هنا في الوفاة "ما أنت بنعمت ربك بمجنون" وهي القرآن.

فالدرجة العليا هي للروح الأعظم، ثم الوزراء من الملائكة ثم الجنود من الملائكة لكل وزير. وهؤلاء الجنود يبلغون النبي الذي يصطفي أولياء للأمر الذين يعلمون بدورهم باقي المؤمنين الذين هم الأساس الذي سيبني الأرض المقدسة، مجتمع المعرفة.

فتذكر هذا جيداً وداوم على التأمل فيه فإنه من أكبر أسرار العلم والوحي كله، وهو هكيل العالم الأعلى.

مجلس الملأ الأعلى يتكون من الروح الأعظم ووزراء الملائكة، وباقي أهل العالم الأعلى هم الملائكة الذين هم جنوده العاملين بأمره.

فالعالم كله ملائكة تقوم بأمر العلي، والملائكة هم نور وقوة، أي هم القوة الواعية التي تحرّك العالم إلى أمر الرب، القوة الواعية تذكر هذا ولا يغرق الناس في الأحلام والأوهام، الملائكة هم القوة الواعية التي تحرك العالم، الآفاق والأنفس إلى أمر الله "والله غالب على أمره" وهو قدر الخلق، السعادة التامة.

ما معنى "فأوئك مأواهم جهنم وسآءت مصيراً"، بما أن سبب خلق الإنسان هو إتمام اتحاد العالم الأعلى بالعالم الأدنى، "وجمع شمس والقمر" أي بأن يصبح عالم الأجسام تحت حكم العطاء والمعرفة بدل الأنانية والفساد وسفك الدماء والبخل والجهل، أي العطاء بدل الأنانية، ولهذا الإنسان قلب وجسم، أما الملائكة فقلب وجسد لا يحتاج إلى طعام، وأما البهائم فجسم فقط.

والإنسان الذي لا يتم هذه العملية، بعد أن يموت ويفنى جسمه فإن قلبه لن يكون أهلاً لأن يدخل العالم الأعلى ويرجع إليه، لأن صفات قلبه غير صفات العالم الأعلى، هو في أنانية وجهل والعالم الأعلى عطاء وعلم، ولذلك قال عنهم "لا تفتح لهم أبواب السماء" ولا هم يستطيعون أن يرجعوا إلى عالم الأجسام لأن أجسامهم قد ووريت في التراب وأكلها الدود ولا يمكن لها أن تعود أصلاً لسنة الخالق، ولذلك احتجوا في البداية بالاستضعاف، فلما جادلتهم الملائكة وبهتوا، أصبحوا في ألم شديد وعذاب عظيم وحسرة وندامة والعياذ بالله، وهذه هي جهنم وسآءت مصيراً.

إلى متى سيبقون في هذا العذاب، حتى يتم اتحاد الأرض والسماء، عقاباً لهم، لأنهم كان من المفروض أن يسارعوا في إتمام هذا الاتحاد، فلما كانوا سبباً في تأخيره عوقبوا بأن يعلّقوا حتى يتم الأمر.

وهذا العذاب الظاهري باطنه رحمة، لأنهم لو عادوا إلى العالم الأعلى بالفشل فسيسود قلبهم، أي وجههم، أمال الملائكة، كالشاب الذي يسافر لنيل شهادة دكتوراه، ثم يرجع إلى قريته فاشلاً مطروداً، أليس من الأحسن أن لا يرجع.

أما إن كان له عذر فإن أهله يواسونه ويطيبون خاطره، "فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم وكان الله عفواً غفوراً".

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

" ومَن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة. ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. وكان الله غفوراً رحيماً * "

في هذه الآية المباركة من المعرفة ما يحتاج إلى كتاب كبير مستقل، هذا إذا أراد الله أن نستقصي كل شيء ونفصّل كل شيء. وبما أن هذا الكتاب هو لإثارة القلب للعالم الرباني فستختار من جواهر هذا البحر العظيم ما يشاء روح القدس لنا أن نختار.

العالم الأعلى هو عالم القلب والعالم الأدنى هو عالم الجسم، الملكوت والآفاق، الملائكة قلب وجسد، والبهائم جسم فقط، والعالم الأعلى يحكم العالم الأدنى، الأعلى هو وجه الله، والأدنى محل ظهور أسمائه الحسنى، والأسماء تعبّر عن الوجه، ولذلك قال مرة "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" ثم قال بعدها "تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام"، هذا قبل خلق الإنسان.

والعالمين ليس فيهم من حيث الجوهر والحكم غير أربعة كائنات، الروح الأعظم وهو الرب، ثم كل الملائكة، والرب اصطفى ثمانية من الملائكة، كجبريل ملك الرسالة وملك الموت، ليكونوا الملأ الأعلى، "وما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون" وهم الذين قال الرب لهم "إني جاعل في الأرض خليفة" ولهؤلاء الثمانية الذين يدبرون أمر عالم السماء والأرض بأمر الرب وزراء، كهارون مع موسى، "ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" ولهؤلاء الوزراء جنود من الملائكة يقومون بأمر الملك الرئيس، "الذين توفاهم الملائكة" مثل هؤلاء هم من جنود ملك الموت.

فإذن حكم العالمين يبدأ من الرب الأعلى، إلى رؤساء الملائكة، إلى وزرائهم، إلى الجنود، الرب والرؤساء في العالم الأعلى، والوزراء والجنود ينفذون في العالم الأدنى.

"بسم" هو الرب، "الله" رؤساء الملائكة، "الرحمن" الوزراء، لذلك هارون وزير موسى كان له اسم الرحمن لقوله "إن ربكم الرحمن" أما موسى الذي هو مظهر رؤساء الملائكة كان يقول باسم الله، ورؤساء الملائكة هم الوجهاء أي الذين يعبرون عن وجه الرب لأنهم مظاهر أسمائه، ولذلك قال عن موسى "وكان عند الله وجيهاً"، والجنود مظهر اسم "الرحيم".

الآن، لما أراد الرب اتخاذ خليفة في الأرض جعل كل الملائكة تسجد له، ولذلك قال "فسجد الملائكة كلهم أجمعون" ولو قال "فسجد الملائكة" لكفى في بيان كل الملائكة، لأن ال للاستغراق، ولكن لما قال "كلهم أجمعون" أراد أن يبين مراتب الملائكة الثلاثة، فقوله "الملائكة" يدل على الثمانية حملة العرش، وعدد أحرف "الملائكة" ثمانية أحرف، وقوله "كلهم" يدل على وزرائهم، وقوله "أجمعون" يدل على الجنود، فإذن الرب الأعلى، رب العرش، جعل آدم وذريته يجلسون على العرش، ولذلك قال "في مقعد صدق عند مليك مقتدر" وليس "عند المليك المقتدر" ليدل على أنه جعل آدم وذريته ملوك العالمين "وجعلكم ملوكاً".

فلا يوجد قوة ولا نور في العالمين إلا وهو ساجد للمتأله من الآدميين، أي مسلّم له الأمر.

فلما كانت نفوس الناس في الملكوت قبل أن تنزل إلى الأجسام حين يشاء الرب ولادتها في راحة تامة، انقسم الناس إلى قسمين، يونس ويوسف، فنفس لا تريد النزول إلى الجسم لتتم الأمر، اتحاد العالَمين، "وذا النون إذ ذهب مغاضباً"، ونفس كيوسف تركت بيت يعقوب لتذهب إلى مصر الأجسام والأنانية حتى ترتفع وتجلب يعقوب إلى مصر، أي تجعل الملكوت في العالم الأدنى، وهذا هو الأمر.

فيونس سيظل الرب يجعله في الظلمات والآلام حتى يرجع، وهذا طريق العذاب الطويل، ويوسف سيظل يجاهد ويصبر حتى يتم الأمر، وهذا طريق أمر الكتاب اليسير، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، والكل سيرجع إلى أمر العالم الأعلى عاجلاً أم آجلاً.

يقول الله "ومن يهاجر في سبيل الله" ويقول "ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله" في عمق كل قلب يرغب في معرفة هذه الحياة يوجد صوت ينادي بهذه الآية، حتى لو كان الرجل لا يفقه من العربية شيئاً. فهذا نداء للنفوس الساكنة في الملكوت، البيت الأصلي، التي تخشى أن تنزل فتضل أو التي تتكاسل عن النزول، التي تتكاسل يقول لها "ومن يهاجر في سبيل الله" أي التي تترك الملكوت لتتم أمر الله، والتي تخشى أن تضلّ بعد النزول يقول لها "ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" فكل من ينوي معرفة العالم الأعلى وولي الله في الأرض ولا يصل فإنه بعد الموت، أي العودة إلى بيته في الملكوت سوف لن يرجع إلا عزيز رافع الرأس، والرب سيتكفل برفع شأنه، "وكان الله غفوراً رحيماً".

"وفوق كل ذي علم عليم".

.....—.....

{ خاتمة }

نختم هذا الكتاب بمقولة ودعوة، أما المقولة فهي أن كل ما فات هو تفصيل أو من تفصيل قوله الجامع "إن الحكم إلا لله"، والدعوة هي أن نتعمق في تدبر كتاب الله، كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، فإن كل حرف من القرآن إنما هو تجسم ملاك من الملائكة، فهو نور وقوة، فاعلم أن حروف القرآن ملائكة الرحمن "الرحمن علم القرآن".

من تأمل وصل.

ما هي أسهل طريقة لأن تصبح ملكاً، هي أن تكون خليل الملك.
كيف تصبح خليل الله، أن تدرس قلب الله.
ما هو قلب الله، خلقه وكتابه، فمن الأثر تعرف المؤثِّر.

أسرار القرآن مملكة الإنسان، والملك من لبس تاج النبوة.

اللهم ربنا اجعل علمنا من القرآن وبالقرآن وإلى القرآن، مخلصين لوجهك يذا الجلال والإكرام.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون،
وسلام على المرسلين،
والحمد لله رب العالمين.

....